on the calculation of volume

حول حساب الحجم "مترجم"

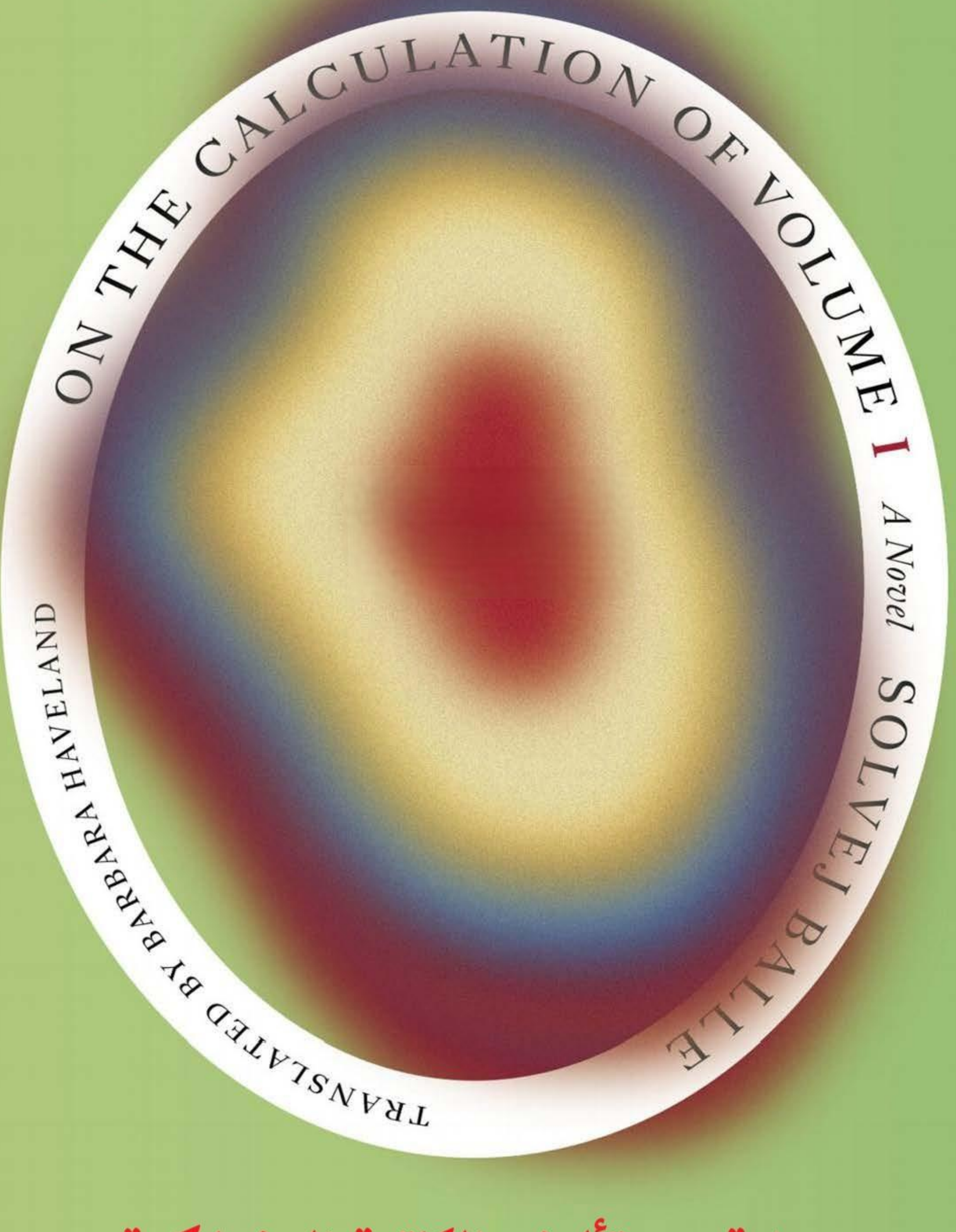

رواية من تأليف الكاتبة الدنماركية

سولفي بالي

on the calculation of volume

حول حساب الحجم

"مترجم"

تأليف الكاتبة الدنماركية

سولفي بالي

ترجمة للإنجليزية: باربرا ج. هافيلاند

الجزء الأول

حقوق الطبع والنشر © 2020 بواسطة Solvej Balle

حقوق الترجمة محفوظة © 2024 لباربرا ج. هافيلاند

جميع الحقوق محفوظة. باستثناء المقاطع القصيرة المقتبسة في مراجعة صحيفة أو مجلة أو إذاعة أو تلفزيون أو موقع إلكتروني، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل أو بأي وسيلة، إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ والتسجيل، أو بواسطة أي نظام لتخزين واسترجاع المعلومات، دون إذن كتابي من الناشر.

تم النشر بالترتيب مع وكالة كوبنهاجن الأدبية. نُشرت في الأصل بواسطة Pelagraf باسم Om udregning af rumfang I في عام 2020

نُشر لأول مرة عام 2024 بعنوان " New Directions Paperbook 1616 Design" من تصميم إريك ريزلباخ.

فهرسَت مكتبة الكونغرس النسخة المطبوعة على النحو التالي: الأسماء: سولفي بال، 1962– (المؤلف). | باربرا هافيلاند (المترجمة). العنوان: في حساب الحجم / سولفي بال؛ ترجمة باربرا ج. هافيلاند من الدنماركية.

ألقاب أخرى: Om udregning af rumfang. الوصف باللغة الإنجليزية: نيويورك: دار النشر الجديدة، 2024.

المعرفات: LCCN 2024032043 | ISBN 9780811237253 (الإصدار 1؛ غلاف ورقي) | ردمك 9780811237260 (v.

التصنيف: LCC PT8176.12.A384 O413 2024 | DDC 839.813/74—dc23/eng/20240711

سجل مكتبة الكونغرس متاح على الرابط التالي: https://lccn.loc.gov/2024032043

تُنشر كتب نيو دايركشنز لصالح جيمس لافلين بواسطة شركة نيو دايركشنز للنشر، 80 الجادة الثامنة، نيويورك 10011

هناك شخص ما في المنزل. أسمعه وهو يتحرك في الغرفة بالطابق العلوي. عندما ينهض من السرير أو عندما ينزل الدرج إلى المطبخ. أسمع صوت تدفق الماء عبر الأنابيب عندما يملأ الغلاية. أسمع صوت احتكاك المعدن بالمعدن عندما يضع الغلاية على الموقد، وصوت طقطقة خافتة جدًا عندما يفتح الغاز. ثم هناك صمت حتى يغلي الماء. أسمع حفيف أوراق الشاي والورق، أولًا عندما تُؤخذ ملعقة، ثم ملعقة أخرى من أوراق الشاي من كيس ورقي وتُسكب في إبريق الشاي، ثم صوت الماء يُسكب فوق أوراق الشاي، لكن هذه الأصوات لا تُسمع إلا في المطبخ. أستطيع سماع فتح الثلاجة، لأن بابها يصطدم بزاوية سطح العمل. ثم هناك صمت آخر، بينما يُنقع الشاي، وبعد لحظة سأسمع صوت رنين فنجان وصحن يُسحبان من الخزانة. لا أسمع صوت سكب الشاي في الكوب، لكنني أسمع وقع أقدام تنتقل من المطبخ إلى غرفة المعيشة بينما يحمل كوب الشاي عبر المنزل. اسمه توماس سيلتر. المنزل عبارة عن كوخ حجري من طابقين على مشارف بلدة كليرون سو بوا في شمال فرنسا. لا أحد يدخل الغرفة الخلفية المطلة على الحديقة وكومة الحطب.

إنه الثامن عشر من نوفمبر. لقد اعتدتُ على هذا الشعور. اعتدتُ على الأصوات، على ضوء الصباح الرمادي، وعلى المطر الذي سيهطل قريبًا على الحديقة. اعتدتُ على وقع الأقدام على الأرض، وعلى الأبواب تُفتح وتُغلق. أسمع توماس ينتقل من غرفة المعيشة إلى المطبخ، ويضع الكوب على سطح العمل، وبعد قليل أسمعه في الردهة. أسمعه يخلع معطفه من علاّقته، وأسمعه يُلقي مظلته على الأرض ثم يلتقطها.

ما إن يخرج توماس إلى مطر نوفمبر حتى يسود الصمت أرجاء المنزل، لا يقطعه سوى صوتي وصوت المطر الخفيف في الخارج. أسمع صوت احتكاك قلم الرصاص بالورق، وصرير الكرسي على الأرض حين أدفعه للخلف وأنهض من على الطاولة. أسمع صوت خطواتي وأنا أعبر الغرفة، وصرير مقبض الباب الخفيف حين أفتح باب الردهة.

بينما يكون توماس خارج المنزل، أتجول عادةً في أرجاء المنزل. أذهب إلى دورة المياه، وأحضر الماء من المطبخ، ثم أعود سريعًا إلى غرفتي. أغلق الباب وأجلس على السرير أو الكرسي في الزاوية، حتى لا يراني أحد من ممر الحديقة إذا نظر إلى الداخل.

عندما عاد توماس حاملاً كيسين بلاستيكيين رقيقين، عادت الأصوات من جديد. صوت المفتاح في الباب، وصوت مسح الحذاء على السجادة. صوت خشخشة الأكياس البلاستيكية عندما وضع

مشترياته. صوت المظلة الملفوفة التي وضعها على الكرسي في الردهة، وبعد لحظة صوت معطفه وهو يُعلق على الشماعة بجانب الباب. سمعتُ صوت خشخشة البلاستيك المتكرر وهو يضع أكياس التسوق على سطح الطاولة ويرتب أغراضه. وضع الجبن في الثلاجة، ووضع علبتي طماطم في الخزانة، وترك لوح شوكولاتة على سطح الطاولة. عندما فرغت الأكياس، كوّرها ووضعها في الخزانة تحت الحوض. ثم أغلق الباب وتركها تُصدر صوت خشخشتها هناك.

خلال النهار، أسمعه في المكتب بالطابق العلوي. أسمع كرسيًا دوارًا يُدفع على الأرض، والطابعة تطبع الملصقات والرسائل. أسمع وقع أقدامه على الدرج، وصوت ارتطام خفيف على ألواح الأرضية بينما يضع توماس الطرود والرسائل في الردهة. أسمعه في المطبخ وغرفة المعيشة. أسمع صوت يد أو كمّ يلامس الجدار وهو يصعد الدرج، أسمعه في الحمام، وأسمع صوتًا من المرحاض لا يصدر إلا عن رجل يتبول واقفًا.

أسمعه الآن على الدرج وفي الردهة مجدداً، ثم يدخل غرفة المعيشة ويجلس على كرسي بذراعين بجوار النافذة المطلة على الطريق. وهناك ينتظر، يقرأ ويراقب مطر نوفمبر.

إنه ينتظرني. اسمي تارا سيلتر. أجلس في الغرفة الخلفية المطلة على الحديقة وكومة الحطب. إنه الثامن عشر من نوفمبر. كل ليلة عندما أستلقي لأنام في سرير غرفة الضيوف، يكون الثامن عشر من نوفمبر، وكل صباح عندما أستيقظ، يكون الثامن عشر من نوفمبر. لم أعد أتوقع أن أستيقظ في التاسع عشر من نوفمبر، ولم أعد أتذكر السابع عشر من نوفمبر كما لو كان بالأمس.

أفتح النافذة وألقي ببعض الخبز للطيور التي ستتجمع قريبًا في الحديقة. تظهر الطيور عندما يتوقف المطر. أولًا طيور الشحرور، التي تنقر آخر التفاحات على شجرة التفاح أو الخبز الذي ألقيته، ثم طائر أبو الحناء وحيد. بعد لحظات، يهبط طائر القرقف طويل الذيل، ويتبعه عن كثب بعض طيور القرقف الكبيرة التي سرعان ما يطردها الشحرور. بعد ذلك بقليل، يعود المطر. يستمر الشحرور في التغذية لفترة أطول قليلًا، ولكن عندما يشتد المطر، يطيرون للاحتماء في السياج.

أشعل توماس نارًا في غرفة المعيشة. أحضر حطبًا من حظيرة الحديقة، وسرعان ما بدأت أشعر بدفء المنزل يزداد. سمعتُ أصواتًا من الردهة وغرفة المعيشة، ولكن الآن وقد جلس توماس يقرأ، لم أعد أسمع سوى صوت قلمي على الورقة، همسًا خافتًا، سرعان ما يطغى عليه صوت المطر.

لقد أحصيت الأيام، وإذا كانت حساباتي صحيحة، فاليوم هو الثامن عشر من نوفمبر، اليوم ١٢١. أُحصي الأيام. أُحصي الأصوات في المنزل. عندما يسود الهدوء، لا أفعل شيئًا. أستلقي وأرتاح على السرير، أو أقرأ كتابًا، لكنني لا أُصدر أي صوت. أو بالكاد. أتنفس. أنهض وأتحرك على أطراف أصابعي في الغرفة. الأصوات تُوجهني. أجلس على السرير، أو أسحب الكرسي برفق من على الطاولة بجانب النافذة.

في منتصف الظهيرة، يشغل توماس بعض الموسيقى في غرفة المعيشة. أسمعه أولاً في الردهة والمطبخ. أسمعه يضع الغلاية على الموقد، ثم أسمع وقع أقدامه على الأرض وهو يعود إلى غرفة المعيشة ويشغل الموسيقى. عندها أعلم أن الجو سيتحسن قريباً. ستنقشع الغيوم وستظهر بصيص من أشعة الشمس.

أستعد للخروج عادةً بمجرد أن تبدأ الموسيقى. أنهض وأرتدي معطفي وحذائي. أقف عند الباب لبضع لحظات حتى يصبح صوت الموسيقى عالياً بما يكفي لأتمكن من مغادرة المنزل دون أن يسمعني أحد، إذ تُخفي أصوات الموسيقى الصادرة من غرفة المعيشة صوت فتح الأبواب وخطوات الأقدام على الأرض وإغلاقها.

أغادر المنزل من باب الحديقة. أضع حقيبتي على كتفي، وأفتح باب غرفة الضيوف بهدوء، وأدخل إلى الردهة وأغلقه خلفي. على الأرض ثلاث مظاريف متوسطة الحجم وأربع عبوات كرتونية بنية اللون.

تحمل هذه الكتب اسمنا: تي. وتي. سيلتر. هذا نحن. نتاجر بالكتب القديمة، متخصصين في الأعمال المصورة من القرن الثامن عشر. نشتري الكتب في المزادات، من هواة جمع الكتب أو من بائعي الكتب الآخرين، ثم نبيعها ونرسلها في طرود بنية اللون تحمل اسمنا. تسللتُ بهدوء من بين الطرود الملقاة على الأرض، فتحتُ الباب وخرجت. لستُ بحاجة إلى مظلة. ما زال المطر يهطل خفيفًا، لكنه سيتوقف قريبًا. لم أسلك درب الحديقة المؤدي إلى البوابة، بل انعطفتُ يسارًا والتففتُ حول جانب المنزل، مارًا بالحظيرة وصولًا إلى زاوية من الحديقة لا تُرى من المنزل. مررتُ بقطعة أرض مزروعة بالكراث وصفين من السلق، ووصلتُ إلى فجوة في السياج أخرجتني إلى الطريق. ألقيتُ نظرة خاطفة إلى الوراء. رأيتُ خيطًا رفيعًا من الدخان يتصاعد من المدخنة، وسمعتُ صوت موسيقى خافتًا جدًا، لكنني أسرعتُ في طريقي. بضع خطوات أخرى ولن أسمع لا موسيقى ولا مطراً لأن المطر قد توقف، والموسيقى قد اختفت خلفي، والأصوات الوحيدة هي خطواتي على الرصيف، وهدير بعض السيارات، وأصوات الأطفال البعيدة في مدرسة على بعد بضعة مبانٍ.

بعد فترة وجيزة، عندما رأى توماس أن المطر قد توقف، أطفأ الموسيقى. ارتدى معطفه والتقط كومة الرسائل والطرود من أرضية الردهة. غادر المنزل في الساعة 3:24. يحمل رسائل وطرودًا. تي. وتي. سيلتر. هذا نحن. لكن الزمن قد فرق بيننا. نسير على طول الطرق الضيقة إلى المدينة أو عائدين إلى المنزل. نحن في الخارج، نتجول في فترات توقف المطر، لكننا لا نسلك الطرق نفسها. لم يكن يتوقع أن يقابلني في الطريق، ولن يفعل. أعرف طريقًا آخر، وبحلول الوقت الذي عاد فيه إلى المنزل، كنت قد عدت إلى الغرفة أنظر إلى الحديقة.

إذا احتجتُ إلى أي شيء، أشتريه من سوبر ماركت صغير على بُعد بضعة مبانٍ. أُخصّص وقتًا كافيًا، وعادةً ما أسلك طريقًا مُلتفًا للعودة إلى المنزل. أدخل من البوابة، وأسير في ممر الحديقة حتى أصل إلى الباب الخلفي، ثم أدخل. المنزل هادئ. توماس خارج المنزل، وقد توقف المطر. هو في طريقه إلى المدينة، وبحلول الوقت الذي يُنهي فيه توصيل طروده، ستكون الشمس قد أشرقت. سيتنزه في الغابة، وينزل إلى النهر، ولن يعود إلا في وقت متأخر من بعد الظهر بعد أن يعود المطر، لأنه لا يوجد أحد ينتظره في المنزل، وليس لديه ما يفعله.

عادةً، عندما أعود، أترك حقائب التسوق في غرفة الضيوف. أعلق معطفي على ظهر الكرسي، وأخلع حذائي، وأتجه إلى المطبخ. هناك كوب بجانب الحوض، والغلاية على الموقد لا تزال دافئة قليلاً. أستطيع تتبع آثار توماس في أرجاء المنزل. أصعد إلى الطابق العلوي وأدخل المكتب. هناك أكوام من الكتب على المكتب، وبعض الأوراق متناثرة. توجد كتب على الرفوف وفي صناديق على الأرض. أحد الصناديق مفتوح لأن توماس كان يبحث فيه عن شيء ما ولم يغلقه. في غرفة النوم المجاورة للمكتب، يبدو أن أحدهم قد استيقظ للتو، لكن جانبًا واحدًا فقط من السرير قد نُام عليه.

لدي ساعة ونصف في المنزل قبل عودة توماس. لدي وقت للاستحمام أو غسل بعض الملابس في الحوض، ولدي وقت لأخذ كتاب من الرف والجلوس معه في أحد الكراسي المريحة بجوار النافذة.

إذا قضيتُ وقتي في غرفة المعيشة، فعادةً ما أستمع إلى الموسيقى أو أقرأ حتى يبدأ الظلام بالحلول، لكنني اليوم أبقى هنا، في الغرفة المطلة على الحديقة وكومة الحطب. سمعتُ توماس يخلع معطفه من على الشماعة، وسمعتُه يغادر المنزل. فتحتُ الباب إلى الردهة، اختفت الطرود من الأرض، والآن أجلس على الطاولة بجوار النافذة. إنه الثامن عشر من نوفمبر. بدأتُ أعتاد على هذا الشعور.

في صباح السابع عشر من نوفمبر، ودّعتُ توماس عند باب المنزل. كانت الساعة الثامنة إلا ربع، وكانت سيارة الأجرة تنتظر في الخارج، فركبتُ قطار الساعة 8:17 من كليرون سو بوا. كنتُ متجهاً إلى بوردو لحضور المزاد السنوي للأعمال الفنية المصورة من القرن الثامن عشر. كانت السماء رمادية، وكان الجو رطباً، لكن لم تمطر.

انطلقتُ من محطة كليرون إلى ليل-فلاندرز، ثم انتقلتُ إلى ليل-أوروبا، ومنها إلى باريس، حيث بدّلتُ القطار إلى بوردو. وصلتُ إلى محطة بوردو قبيل الساعة الثانية، وبعد لحظات من الارتباك بسبب أعمال الطرق خارج المحطة، مع وجود العديد من الحواجز واللافتات والممرات المغلقة، وجدتُ طريقي إلى مركز المعارض حيث سيُقام المزاد، ووصلتُ إليه بعد دقائق. سجّلتُ اسمي، وحصلتُ على برنامج وشارة كُتب عليها "صالون الأنوار السابع"، متبوعًا باسمي، وتحته اسم شركتنا "تي. آند تي. سيلتر".

وصلتُ في الوقت المناسب للمزاد الرئيسي للكتب المصورة، والذي كان من المقرر أن يبدأ في تمام الساعة الثالثة. وقد أُقيم مزادان بالفعل، ورأيت من البرنامج أنه سيُقام هذا العام أيضاً ندوات وحلقات نقاش، لكن لم أكن أنوي حضور أي منها.

ما إن دخلت حتى ترددت للحظة، مشوشًا بعض الشيء من مشهد مؤتمر منعقد، أبواب مغلقة وأكواب قهوة مهجورة، إلى أن لمحت اللافتات والأسهم التي تشير إلى قاعة المزاد وقاعة العرض المجاورة، حيث نصب عشرات من بائعي الكتب القديمة، كعادتهم، أكشاكهم لعرض الكتب والرسومات العلمية. كانت لدي فكرة جيدة عن الكتب التي أرغب في المزايدة عليها في المزاد، وبعد أن ألقيت نظرة على أهمها، تجولت في قاعة العرض. سلمت على بعض بائعي الكتب الذين أعرفهم من قبل، ثم، قبل الثالثة بقليل، جلست في قاعة المزاد، التي سرعان ما بدأت تمتلئ بالناس الذين يتدفقون من قاعات المؤتمر.

تمكنتُ من شراء اثني عشر عملاً في المزاد. خمسة منها كانت لدينا طلبات مسبقة عليها، وسبعة أخرى ظننتُ أننا سنحصل على أسعار جيدة لها. نتعامل بشكل رئيسي في الكتب متوسطة السعر، ونبيع لمجموعة متنوعة من هواة جمع الكتب، معظمهم في أوروبا، مع وجود بعض العملاء في أنحاء أخرى من العالم. عادةً ما أسافر إلى المزادات وأزور مكتبات الكتب القديمة، بينما يتولى توماس مهمة الفهرسة والشحن. في البداية، كنا نقوم بكل شيء معًا، لكننا قسمنا المسؤوليات تدريجيًا. لستُ متأكدًا لماذا وقع عليّ عبء السفر. ربما لأنني لا أمانع السفر كثيرًا، وربما لأنني طورتُ بسرعة حسًا خاصًا بالكتب، إحساسًا بالورق، وعينًا على جودة الطباعة، وعلى التجليد المتقن. لا أعرف ما

هو، لكنه شعورٌ يكاد يكون ملموسًا، كدودة الأرض التي تختبر ما إذا كانت الورقة تستحق الزحف عليها، أو كطائر يستمع إلى حفيف الحشرات في لحاء الشجرة. قد يكون الأمر تفصيلاً: الصوت عند تقليب الصفحات، ملمس الكتابة، عمق الطباعة، تشبع الألوان في الرسم التوضيحي، دقة التفاصيل في اللوحة، ألوان الحواف، لا أعرف ما الذي يحسم الأمر بالنسبة لي، لأنه على الرغم من أنني أعرف عمومًا ما ينجح

أنا مهتم بـ، وعادةً لا أكون متأكدًا تمامًا مما إذا كنت أرغب في شراء كتاب حتى أحصل عليه بين يدي.

بعد انتهاء المزاد، عدتُ إلى قاعة العرض، ودفعتُ ثمن بعض الكتب التي كنتُ قد حجزتها، ووجدتُ ستة أعمال أخرى كنتُ أبحث عنها، بالإضافة إلى بعض الكتب التي لم أكن أعرفها. عادةً ما أُرتّب لإرسال الكتب الأثقل والأكثر قيمة مباشرةً إلى دار نشر كليرون سو بوا، لكنني غالبًا ما آخذ معي بعض مشترياتي في حقيبتي: في هذه المناسبة، موسوعة جيبية لأصوات الطيور مُرتبة حسب النوتة الموسيقية، جديدة بالنسبة لي؛ طبعة ثانية من كتاب هاركارد عن تشريح الحيوانات، ونسخة فاخرة من كتاب بويزو الشهير عن العناكب، أطلس العناكب، الذي أراد أحد زبائننا الدائمين إهداءه لصديق، ولذلك وعدنا بالبحث عنه.

في وقت متأخر من عصر يوم السابع عشر من نوفمبر، استقللتُ القطار إلى باريس، ووصلتُ في وقت متأخر من تلك الليلة إلى فندق دو ليسون، حيث نقيم عادةً عندما نكون في المدينة. يقع فندق دو ليسون على زاوية شارع ألماجيست، حيث توجد متاجر العديد من بائعي الكتب القديمة الذين نتعامل معهم، وحيث يقع متجر صديقنا العزيز فيليب موريل للعملات القديمة. كانت خطتي لليومين التاليين، إلى جانب شراء الكتب لأعمالنا ومقابلة فيليب، زيارة مكتبة الأبحاث، مكتبة 18، في كليشي، حيث كان لدي موعد في اليوم التالي، التاسع عشر من نوفمبر، مع أمينة مكتبة تُدعى نامي شاريه، التي كتبت مقالًا عن بعض الاختلافات التي لم تُلاحظ سابقًا في تقنيات الطباعة في القرن الثامن عشر. وقد مكّن اكتشافها لبعض التغييرات في أدوات النقاشين وأساليب عملهم من تحديد تاريخ الرسوم التوضيحية من نهاية تلك الفترة بدقة كبيرة، وبالتالي إلقاء الضوء على التناقضات بين نشأتها وسنة نشرها.

فور وصولي إلى الفندق، اتصلت بتوماس. لم تكن محادثة طويلة. أخبرته عن اكتشافاتي في ذلك اليوم وسألته إن كان لديه أي عناوين أضيفها إلى قائمتي لليوم التالي. اقترح عليّ بعض الأعمال التي يعتقد

أنها تستحق البحث، وكان قد رتب مع اثنين من زملائنا التجار في شارع رينارت، وهو شارع فرعي متفرع من شارع ألماجيست، لحجز كتابين. طلب مني معاينتهما، وشرائهما إن كانا بحالة جيدة. أضفت هذين الكتابين إلى قائمتي ووعدته بالذهاب لمعاينتهما. أظن أننا تحدثنا قليلاً عن المزاد.

وتحدثنا قليلاً عن طقس شهر نوفمبر قبل أن نودع بعضنا وننهي المكالمة.

نحاول تجنب المكالمات الهاتفية المطولة عندما نكون بعيدين. ليس فقط لأننا سننتهي بحوارات مطولة ومفصلة حول حالة الكتب وسنوات النشر والرسومات والأسعار، بل أيضاً لأن مثل هذه المحادثات تزيد من المسافة بيننا. فما إن نبتعد عن الأمور البسيطة والعملية، حتى يتحول الحديث تدريجياً إلى ما يشبه رابطاً صوتياً، همساً خافتاً. يصبح تواصلنا، الذي كان في البداية ذا معنى ومنطقي، سلسلة من التبادلات المتقطعة التي لا تحتوي على جمل ولا معلومات: كلمات وأصوات قليلة، يُفترض أنها تهدف إلى إبقاء التواصل بيننا، لكنها في الواقع تُظهر بوضوح مدى بُعدنا. لذلك تعلمنا تقسيم العمل بيننا، والالتزام بالأمور العملية، والتحدث مع بعضنا فقط عند الضرورة.

لقد نسيتُ الكثير من تفاصيل حديثنا، لكن توماس - الذي يتذكر السابع عشر من نوفمبر وكأنه البارحة - أخبرني أنني أثنيتُ كثيرًا على ما حصدته في ذلك اليوم، وأنني كنتُ أتساءل عما إذا كان ينبغي لشركة تي آند تي سيلتر توسيع نطاق عملياتها لتشمل اللوحات والرسومات التوضيحية. تحدثنا في الغالب عن المشاكل العملية المرتبطة باقتراحي، لا سيما فيما يتعلق بالشحن، والذي سيكون على الأرجح من مهام توماس. شعرتُ أن الفكرة تستحق الدراسة، لكن توماس لم يكن متأكدًا من ذلك.

لا أتذكر بقية المحادثة، لكنني أتذكر أنني استحممت بعد ذلك بوقت قصير، ثم جلست على سريري في غرفتي بالفندق وألقيت نظرة سريعة على قائمة كتبي. أتذكر أيضاً أنني كنت متعباً جداً من السفر، فضبطت المنبه على هاتفي، وخلعت ملابسي، ودخلت إلى الفراش.

ما زلتُ أجهل ما إذا كان من الحكمة أن تتوسع شركة تي آند تي سيلتر لتشمل اللوحات والرسوم التوضيحية العلمية، لكنني أعلم يقيناً أن هذه الاعتبارات لم تعد ذات جدوى. كما أعلم أن توماس ترك طروده في مكتب البريد منذ قليل، وأنه ذهب إلى النهر ومرّ بطاحونة المياه القديمة، وأنه سار في الغابة وسيعود قريباً.

أراقب غيوم المطر. تخبرني الغيوم متى ينتهي الوقت. يخفت الضوء وأرى السماء تتحول إلى اللون الرمادي الداكن. إذا كنت أجلس في غرفة المعيشة مع كتاب، يصبح الظلام حالكًا بحيث لا أستطيع القراءة، فأستعد للانسحاب إلى غرفة الضيوف. أجلس لبرهة أستمع إلى صوت المطر، وعندما يشتد، أعرف أن توماس سيعود قريبًا. أنهض من الكرسي بجانب النافذة، وأذهب إلى المطبخ، وأغسل كوبي في الحوض، وأضعه في الخزانة، ثم أعود إلى هنا. عادةً ما أتذكر رفع درجة حرارة المدفأة قبل مغادرة غرفة المعيشة. لقد خمدت الجمر في الموقد منذ زمن، وعندما يعود توماس سيكون غارقًا في الماء.

لكنني لستُ جالسةً في غرفة المعيشة اليوم. أجلس على طاولة غرفة الضيوف، والغيوم الماطرة تتجمع من جديد. أُحدّق في الحديقة وشجرة التفاح. سقطت تفاحتان على العشب، وهبت نسمة خفيفة جففت أوراق الخريف تقريبًا بينما كنتُ جالسةً هنا، لكن الشجرة ستُبلل بالمطر قريبًا. ما زلتُ أرى الطيور وهي تحلق في الضوء الخافت. إنها تُدرك أن المطر قادم، لكنها لم تأتِ بعدُ إلى أعشاشها في السياج.

يحلّ الظلام بينما أنتظر مرور توماس من الخارج. يصعب قراءة الكتابة على الصفحة أمامي. أغلقتُ باب الردهة وابتعدتُ عن النافذة. عادةً ما أجلس على السرير بانتظار عودة توماس، وأعلم أن ظلاً داكناً، ثم آخر، سيأتي على الطريق أسفل الحديقة. الظل الأول هو ظل جارنا. والثاني هو ظل توماس وهو يشق طريقه تحت المطر. هذه هي المرة الوحيدة التي أراه فيها: مجرد خيال مبلل قرب السياج. بقية اليوم، لا أسمعه إلا في غرف المنزل.

لم أشعل الضوء إلا بعد أن عاد صوت توماس يتردد في أرجاء المنزل. سمعت خطواته على ممر الحديقة، ومفتاحه في القفل، والباب يُفتح ويُغلق. سمعته يمسح قدميه على السجادة، وصوت طقطقة خافتة للمفتاح حين أضاء مصباح المدخل. أرى ضوءًا يتسلل من تحت الباب، وقد أضأتُ المصباح على الطاولة. يملأ ضوءي هذه الغرفة ويتسرب من تحت الباب، لكنه لا يُرى من المدخل، إذ يمتزج مع ضوء الخارج حتى يكاد يختفي.

عدتُ إلى الطاولة بجانب النافذة، وبعد وقت قصير سمعتُ خطوات توماس على الدرج وفي الممر مرة أخرى. سمعتُه في المطبخ.

والردهة. أسمعه يفتح الباب المواجه للطريق ويخرج ليجلب كراثًا من الحديقة وبعض البصل من المخزن. أسمعه يرتدي حذاءه المطاطي عند الباب. أسمعه يمشي على جانب المنزل، ثم لا أسمع شيئًا حتى يعود بخضراواته. أسمعه يقطع الخضراوات للحساء. أسمع صوت

خشخشة القدر على الموقد، وبمجرد أن يصبح الحساء جاهزًا، أسمع صوت احتكاك أرجل الكراسي بأرضية المطبخ. بعد قليل، أسمع صوت تدفق الماء عبر الأنابيب بينما يغسل توماس طبقه في حوض المطبخ، ثم أسمعه يعيد الطبق إلى الخزانة قبل أن يذهب إلى غرفة المعيشة. يقضي أمسيته في قراءة كتاب "تحقيقات واضحة" لجوسلين ميرون، ويقترب منتصف الليل قبل أن يطفئ ضوء الردهة ويصعد إلى الطابق العلوي، لكن ذلك ما زال بعيدًا، فالمساء قد بدأ للتو. توماس يغير ملابسه في غرفة النوم في الطابق العلوي، وأنا أتذكر سلسلة طويلة من أيام نوفمبر التي بدأت تتداخل في ذهني. هناك 121 يومًا يجب تذكرها. إن استطعت.

في البداية، لم يكن يوم الثامن عشر من نوفمبر يومًا استثنائيًا. استيقظتُ في غرفتي بالفندق الساعة السابعة والنصف، ونزلتُ لتناول الفطور بعد نصف ساعة. قضيتُ اليوم أتجول بين مكتبات الكتب القديمة في المنطقة المحيطة بشارع ألماجيست، وتوقفتُ في طريقي عند متجر فيليب موريل رقم 31. ظنّ مساعد فيليب الجديد، الذي لم أكن قد قابلته من قبل، أنه سيعود قرب نهاية فترة ما بعد الظهر، فقلتُ له إنني سأمرّ عليه مجددًا حوالي الساعة الخامسة. في المكتبات المختلفة التي نشتري منها عادةً عندما نكون في المدينة، وجدتُ عددًا من الكتب التي كنتُ أبحث عنها. توقفتُ عند أحد التجار في شارع رينارت لألقي نظرة على نسخة من كتاب "تاريخ المياه الصالحة للشرب" التي وجدها توماس معروضة للبيع، والتي استفسر عنها أحد عملائنا مرارًا. كانت نسخة رائعة، فاشتريتها على الفور ووضعتها في حقيبتي، لأخذها معي إلى كليرون سو بوا في اليوم التالي مباشرةً ليُرسلها توماس إلى عميلنا المُستعجل. وجدت عند نفس البائع بعض الأعمال الأخرى التي اشتريتها وطلبت إرسالها إلى كليرون، وفي بائع آخر حصلت على نسخة من كتاب ثورنتون "الأجرام السماوية" بحالة جيدة وتحتوي على لوحتين فقط موجودتين في هذه الطبعة الوحيدة، والتي نُشرت في طبعتين صغيرتين عام 1767.

قبل الخامسة بقليل، نزلتُ الدرج إلى متجر فيليب موريل مجدداً. مرّ وقتٌ طويل منذ آخر مرة رأيته فيها، ستة أشهر أو ربما أكثر، وجلسنا لبعض الوقت نتجاذب أطراف الحديث على المكتب الكبير في الجزء الأمامي من المتجر، وكان فيليب ينهض بين الحين والآخر لخدمة أحد الزبائن أو للرد على الهاتف. أخبرته عن المنزل في كليرون سو بوا، الذي لم يزره بعد، رغم أننا نسكن هناك منذ عامين. تحدثتُ عن الحب، وعن شجرة التفاح في الحديقة، وعن الكراث والسلق. أخبرته عن فيضانات الخريف، وعن النهر الذي يفيض أحياناً، وعن عملنا الذي أصبحنا أخيراً قادرين على كسب عيشنا منه، وعن الطلب المتزايد على

الأعمال المصورة من القرن الثامن عشر، وعن المزاد وآخر اكتشافاتي. أخبرني فيليب عن الحياة في شارع ألماجيست وعن صديقته الجديدة ماري، التي قابلتها في المتجر في وقت سابق من ذلك اليوم، وعن الاضطرابات السياسية في ذلك الخريف، وعن الطلب الكبير على الآثار النادرة وغير النادرة من الماضي - وهو اتجاه لاحظه أيضًا في عمله الخاص.

يتخصص فيليب في العملات المعدنية من روما الإمبراطورية، وهو عملٌ اعتبره معظم أصدقائه ضربًا من ضروب المزاح عندما بدأه في ريعان شبابه، ولكنه أثبت في السنوات الأخيرة أنه مشروعٌ مربحٌ للغاية. أخبرني فيليب بدهشة كيف أنه في عدة مناسبات، دُعي إلى العشاء من قِبل أحد زبائنه الدائمين، ليجد نفسه فجأةً وسط حشدٍ من المهتمين، لا يقتصر على كبار السن فحسب، بل يشمل أيضًا شبابًا وشابات، جميعهم متشوقون لسماع المزيد عن لوائح دار سك العملة الإمبراطورية، وتفاصيل تقنيات سك العملات، أو عن اكتشافات العملات البيلاروسية التي تُثير بعض الشكوك. وتحدث عن مضيفين كانوا يصطحبون زوارهم فجأةً في جولةٍ عبر شققهم الباريسية الفسيحة لعرض مجموعاتهم من العملات، ليس لإثارة دهشة ضيوفهم أو إحراجهم من هواية مضيفهم الغريبة، بل لإمتاعهم، وهم يتفحصون أحدث مقتنيات مضيفهم بتمعنٍ من خلال عدسات مكبرة قوية. اعترف فيليب بأنه فوجئ إلى حدٍ ما برؤية شغفه الهادئ يحظى بكل هذا الاهتمام. يبدو أن هذه القطع المعدنية الصغيرة من عصر مضى قد أصبحت موضوع هوس جمع جديد - ربما ليس موجة بالضبط، ولكن بالتأكيد اهتمام متزايد كان يدركه بشدة في عمله.

تأملنا قليلاً في هذا الإقبال على اقتناء تذكارات من الماضي، وأريتُ فيليب نسختي من كتاب "تاريخ مياه الشرب". تحدثنا عن مدى حرص المشتري على الحصول عليه، وتساءلنا عن سبب رغبة أحدهم في شراء كتاب كهذا. من يشتري كتابًا يزيد عمره عن مئتي عام عن تاريخ مياه الشرب؟ لا بد أنه جامعٌ من نوع ما، لكن من الصعب تخمين ما تتكون منه مجموعته تحديدًا، وكيف سيُدرج هذا الكتاب ضمنها. لم أكن أعرف عنه شيئًا سوى اسمه وعنوانه ونبرة صوته على الهاتف عندما اتصل للمرة الثالثة، قبل أسابيع قليلة، للاستفسار عن الكتاب. افترضتُ أنه رجل في منتصف العمر، وكنتُ أعلم أنه اشترى منا كتابين أو ثلاثة من قبل، مع أنني لم أستطع تذكر أيها.

ما زلتُ أتذكر كيف ناقشنا، بشيء من السخرية واللامبالاة، هذا الاهتمام المتزايد بكنوز الماضي. مع أننا قد نُقال إننا نعاني من هذا الحنين أو الشغف بالتاريخ، أو أيًا كان ما نُسميه، فقد فوجئنا قليلًا

بانتشاره الواسع. أعتقد أننا شعرنا برغبةٍ في الاعتذار عن اهتماماتنا الغريبة، التي بات من الواضح أننا نتشاركها مع عددٍ متزايد من الناس. على الأقل، تمكّنا من كسب عيشنا منها. كانت أعمالنا، وليست مجرد هواية أو موضة عابرة. كانت لدينا شركاتنا، تي آند تي سيلتر وموريل نوميسماتيك، لإدارتها، وكنا نشعر، على ما أظن، أن علاقتنا بحنيننا الداخلي للماضي أكثر واقعية من علاقتنا بعملائنا.

لحسن الحظ، ظهرت ماري، حبيبة فيليب، في منتصف حديثنا. عرّفنا فيليب على بعضنا، وتبادلنا بضع كلمات حول موضوع الحديث، وأيضًا حول لقائنا السابق في اليوم. بعد قليل، سحبت ماري كرسيًا وجلست على المنضدة، بينما خرج فيليب ليحضر بعض الطعام وزجاجتين من النبيذ من متجر قريب.

كانت إحدى أمسيات نوفمبر الباردة الأولى. هطلت أمطار خفيفة في الصباح، وكان باقي اليوم غائمًا مع فترات مشمسة متقطعة، وبدأ الجو يبرد في المتجر. في المطبخ الصغير في الخلف، حيث كان فيليب ينام أيضًا في السنوات الأولى بعد افتتاح المتجر، كان لديه مدفأة غاز قديمة، وقررت أنا وماري محاولة إشعالها. مسحت ماري طبقة من الغبار عن سطحها، وقمنا معًا بـ

تمكنّا من تحريك أسطوانة الغاز الزرقاء الكبيرة الموضوعة بجوار الجزء الخلفي من المدفأة، وربطناها، ثم دفعنا الجهاز الثقيل إلى واجهة المتجر وصولاً إلى المنضدة. وجدنا علبة أعواد ثقاب في درج المطبخ وأشعلنا الغاز. عندما عاد فيليب، كان المتجر قد بدأ يدفأ بشكل جيد. جلسنا حول المنضدة وقضينا الساعات القليلة التالية نأكل ونشرب ونتجاذب أطراف الحديث.

أكثر ما أتذكره بوضوح من تلك الأمسية هو مدى استمتاعي بالجلوس بين فيليب وماري. كان بينهما تقاربٌ لا يُمكنني تجاهله. ليس ذلك النوع من الوعي الصامت الذي يُقصي الآخرين، ولا ذلك الانغماس في الذات الذي يُصيب زوجين في بداية الحب، واللذين يحتاجان باستمرار للتواصل بنظرة أو لمسة، ولا تلك الحميمية الرقيقة التي تجعل الغريب يبدو كعنصر مُزعج، وتُثير فيك الرغبة في ترك الحبيبين وشأنهما مع علاقتهما الرقيقة. كان يحيط بهما جوٌ من السكينة، ماري وفيليب، ذكّرني بالوقت الذي التقيت فيه توماس لأول مرة قبل خمس سنوات. شعورٌ مفاجئ بمشاركة شيءٍ لا يُمكن تفسيره، شعورٌ بالدهشة لوجود الآخر - الشخص الذي يجعل كل شيء بسيطًا - شعورٌ بالهدوء والاضطراب في آنٍ واحد. كان من الواضح أن فيليب وماري قد قررا قضاء بقية حياتهما معًا، الأمر بهذه البساطة، فماذا عساهما أن يفعلا سوى انتظار ما يُخبئه لهما المستقبل؟ من هذا المنطلق، كانت زيارتي

حدثًا طبيعيًا تمامًا، فقد كنت جزءًا من حياتهما المشتركة، زميلًا وصديقًا، متزوجًا من إحدى صديقات فيليب منذ مراهقته المبكرة. لم أكن عائقًا، لا عونًا ولا مانعًا، لا خصمًا ولا مؤيدًا، لا بائعًا ولا مشتريًا؛ كنت ببساطة عنصرًا حاضرًا في حياتهما.

لم أعد أتذكر تفاصيل حديث تلك الأمسية، لكنني أتذكر أجواء الغرفة. أتذكر أنني كنت أجلس هناك في لحظة ما أتأمل زاوية منضدة البلوط الكبيرة القديمة التي كنا نجلس حولها، والتي كانت بمثابة منضدة المتجر. أتذكر آثار الخشب، وعرضًا صغيرًا للعملات المعدنية في صناديق شفافة موضوعة عليها، والتي اضطررنا إلى إزاحتها جانبًا لإفساح المجال للأطباق والأكواب. أتذكر أيضًا دفء الغرفة وحادثتي مع المدفأة الغازية. حدث ذلك بعد أن انتهينا من تناول الطعام. كنت قد دفعت كرسيي للخلف قليلًا، لكن الحرارة كانت شديدة، فنهضت لأحرك المدفأة قليلًا.

أبعد من ذلك. أتذكر أن فيليب قد حمل أطباقنا وذهب إلى المطبخ الصغير في مؤخرة المتجر ليحضر فتاحة زجاجات لفتح زجاجة نبيذ أخرى، وأتذكر أنني قلت شيئًا عن شدة الحرارة وأنني سأحرك المدفأة قليلًا. نهضت ماري، لكنني كنت قد وضعت يدي بالفعل على حافتها العلوية ودفعتها بقوة بعيدًا عن المكتب.

بينما كنا جالسين هناك، ارتفعت حرارة المدفأة بشكل ملحوظ، وأصبحت الحافة المعدنية التي وضعت يدي عليها شديدة السخونة، لذا ما إن بدأت المدفأة الثقيلة بالتحرك حتى شعرت بألم حارق مفاجئ في يدي. أطلقت صرخة، ربما كانت شتيمة. جاءت ماري وتمكنت من تحريك المدفأة بينما كنت واقفة هناك، مشلولة من الألم للحظة. بعد أن وضعنا أطباقنا في المطبخ، عاد فيليب سريعًا ومعه وعاء من الماء البارد غمرت يدي فيه، وبقيتُ جالسة على هذه الحال طوال بقية المساء، ويدي مغمورة في وعاء الماء، مع أن ذلك لم يخفف الألم. كان هذا هو الشيء غير المعتاد الوحيد الذي حدث في تلك الليلة.

عدتُ إلى الفندق قبيل الساعة الحادية عشرة بقليل، وبعد ذلك بوقت قصير اتصلتُ بتوماس. كان منغمسًا في قراءة كتاب جوسلين ميرون، وبدا وكأنه لم يكن يتوقع مكالمتي. لا أدري إن كنتُ قد أزعجته في قراءته أم أنه كان سعيدًا بالمقاطعة، لكنني أتذكر كيف أطلعني على المحاور الرئيسية للكتاب وشرح لي أشكال فكر التنوير المختلفة التي حددتها ميرون. أتذكر أيضًا أننا ناقشنا العنوان الفرعي الغريب نوعًا ما للكتاب: "صعود وسقوط مشاريع التنوير"، ثم أخبرته عن زيارتي لفيليب موريل، وعن صديقته ماري وحبهما الواضح لبعضهما، وعن الطلب المتزايد على العملات الإمبراطورية وحادثتي مع المدفأة في

متجر فيليب. أخبرني توماس أن المطر هطل معظم اليوم، باستثناء بضع ساعات بعد الظهر. كان قد أخذ رسائل وطرودًا إلى مكتب البريد، ولاحقًا، عندما سطعت الشمس، قرر أن يتمشى في الغابة وعلى طول النهر. ذهب إلى طاحونة المياه القديمة، ظنًا منه أن المطر قد توقف، لكن في طريق عودته إلى المنزل، فاجأه وابل غزير من المطر فابتلّ تمامًا. أتذكر كيف تحدثنا عن خطر فيضان النهر. قال إنه بالنظر إلى ارتفاع منسوب المياه، إذا...

كانت توقعات الطقس للأيام القليلة القادمة جيدة، وانتهى خطر الفيضانات مؤقتًا. لا أتذكر كل تفاصيل حديثنا، لكنني متأكد من أنني أبلغت عن اكتشافات اليوم، والأسعار، وترتيبات التسليم، وأعلم أننا ناقشنا خططي لليوم التالي، التاسع عشر، عندما كان من المقرر أن ألتقي نامي شاريه في مكتبة ١٨.

خلال حديثنا، اشتكيتُ مرة أو مرتين من الحرق المؤلم الذي لا يزال يُؤلم يدي، فضحكنا قليلاً على تهوّري: لم تكن تلك المرة الأولى التي أُعاقب فيها لعدم مراعاتي، كما قال توماس، أبسط قواعد السبب والنتيجة. اقترح عليّ أن أحضر بعض مكعبات الثلج لتبريد الجرح، ثم تبادلنا على الأرجح بعض الملاحظات العابرة. أتذكر أن أحدنا لاحظ أننا عدنا إلى نمطنا المعتاد في التواصل الصوتي، همساتٌ أبرزت المسافة بيننا، وقبل أن نُودّع بعضنا ونُنهي المكالمة، أعتقد أنني وعدتُ توماس بأنني سأنزل مباشرةً إلى ردهة الفندق لأحضر بعض مكعبات الثلج. كانت تلك آخر مرة تحدثتُ فيها إلى توماس قبل أن يتلاشى الزمن.

بقيت مستيقظًا لبعض الوقت، نصف ساعة، أو ربما أكثر. كنت قد أحضرت كيسًا من مكعبات الثلج، ووضعت الثلج على الحرق، ولففت منشفة حول يدي. أبقاني الألم والبرد مستيقظًا، فتقلبت قليلًا، وشعرت بقلق غريب في الفراش، لكن تدريجيًا، تسبب تأثير البرد أو التعب أو أيًا كان السبب في انحسار الألم، وعندما غفوت أخيرًا، كانت منشفة مليئة بمكعبات الثلج الذائبة ملفوفة حول يدي، ومجموعة صغيرة من الكتب على المكتب في الغرفة: بعض الملاحظات عن أصوات الطيور، وأطلس للعناكب، وكتاب عن الأجرام السماوية، وكتاب عن تاريخ مياه الشرب، وموسوعة تشريح الحيوانات. على كرسي بجانب السرير كان هاتفي، وقد ضبطت المنبه على الساعة 7:30 من صباح اليوم التالي. كانت معلقة على ظهر الكرسي فستان وسترة وجوارب طويلة، وعلى الأرض كان هناك زوج من الأحذية القصيرة وحقيبة كتف كبيرة تحتوي على فستان إضافي وجوارب طويلة وملابس داخلية ومحفظة ومجموعة من المفاتيح وزجاجة مياه شبه فارغة ومظلة ملفوفة.

لا تزال الحقيبة بجانبي على الأرض، والكتب موضوعة على الطاولة بجوار السرير الإضافي. لم أعد في الفندق، بل في منزلنا في كليرون سو بوا، في الغرفة المطلة على الحديقة. إنه المساء، ولا يزال اليوم هو الثامن عشر من نوفمبر. توماس في غرفة المعيشة يقرأ.

وسرعان ما سيطفئ النور ويتأكد من إغلاق الأبواب. سيصعد إلى الطابق العلوي، وعندما يستيقظ صباح الغد، سيكون قد نسي يوم الثامن عشر من نوفمبر.

هذه هي المرة الـ 121 التي أعيش فيها يوم 18 نوفمبر، ولا يزال أثر الحرق واضحًا كندبة رفيعة على يدي. بدأ الأمر ككتلة ملتهبة ومنتفخة، ثم بدأت تفرز سائلًا، وبعدها تشكلت قشرة طويلة بنية اللون فوقها. شيئًا فشيئًا، انفصلت القشرة وسقطت، تاركةً علامة وردية لامعة. لم يعد بالإمكان الشعور بها، وبعد لحظة، عندما أطفئ الضوء، ستختفي تمامًا.

T122

أستطيع أن أعرف من الأصوات. إنه نفس اليوم. استيقظتُ مجدداً في غرفة الضيوف، وها هو توماس قد بدأ روتينه الصباحي كعادته، وتدفقت المياه من الأنابيب، وأصدر الموقد والثلاجة أصواتهما. سيخرج توماس بعد لحظات وسيعود سريعاً بحقائبه، وبينما هو غائب سأذهب إلى المطبخ لأحضر بعض البسكويت أو المقرمشات أو أي شيء أجده لأن مؤونتي بدأت تنفد.

أستطيع سماعه وهو يستعد لمطر نوفمبر. أسمع طقطقة خفيفة وهو يُخرج مفاتيحه، وحفيف قماش معطفه على ورق الحائط في الردهة وهو يخلع معطفه من على الشماعة.

لقد أحصيت الأيام. إنه الثامن عشر من نوفمبر، رقم ١٢٢ بالنسبة لي. لقد قطعت شوطًا طويلًا منذ السابع عشر، ولا أدري إن كنت سأرى التاسع عشر يومًا. لكن الثامن عشر يعود مرارًا وتكرارًا. يأتي ويملأ البيت بالأصوات. بصوت شخص. يتجول في أرجاء البيت، والآن هو على وشك الخروج.

لهذا السبب بدأتُ الكتابة. لأنني أستطيع سماعه في المنزل. لأن الزمن قد تهاوى. لأنني وجدتُ رزمة ورق على الرف. لأنني أحاول أن أتذكر. لأن الورق يتذكر. وربما يكون في الجمل شفاء.

جلستُ بجوار النافذة. أمامي كومة صغيرة من الأوراق مكتوب عليها أن هناك شخصًا ما في المنزل وأنني أستطيع سماعه.

أتحرك هنا وهناك. كتبتُ أنه ينتظر، وأنه ينتظرني. كتبتُ أن الزمن قد تهاوى. بدأتُ أعتاد على هذه الفكرة. كتبتُ أنني أعتاد على هذه الفكرة، وأن في الكلمات شفاءً. ربما.

لكن ما زال اليوم هو نفسه، وبعد قليل، عندما أجمع بعض المؤن من المطبخ، وعندما أذهب إلى الحمام وأغسل أسناني، وبمجرد أن أغلق الباب وأستقر في هذه الغرفة، سأسمع توماس يعود بمشترياته. سأسمعه يُخرج الأشياء من حقائبه ويضعها في مكانها. سأسمع صوت فتح الثلاجة وارتطامها بسطح الطاولة. سأسمعه في المكتب في الطابق العلوي، وفي المطبخ، وفي الردهة. سأسمع صوت يد أو كمّ يلامس جدار الدرج، وصوت ارتطام خفيف على ألواح الأرضية وهو يضع الرسائل والطرود في الردهة.

أدركتُ الأمر فجأةً أثناء تناول الفطور. استيقظتُ في غرفتي بفندق دو ليسون قبيل السابعة والنصف بقليل، وبجانبي منشفة رطبة وحرق لم يعد يؤلمني كثيرًا. استحممتُ سريعًا ونزلتُ لتناول الفطور. طلبتُ قهوة، وأخذتُ شيئًا من البوفيه، ثم عدتُ إلى طاولتي مع صحيفة، لكن نظرة سريعة على الصفحة الأولى كانت كافية لأعرف أنها نفس الصحيفة التي قرأتها في اليوم السابق. عندما خرجتُ إلى الردهة وسألتُ عن صحيفة ذلك الصباح، قيل لي إن الصحيفة التي في يدي هي صحيفة ذلك الصباح، وأن اليوم هو الثامن عشر من نوفمبر، وأن اليوم السابق كان السابع عشر منه. حتى عندما أعرف أنني على صواب، نادرًا ما أُجادل في مثل هذه الأمور، لذا أخذتُ صحيفة أخرى من اليوم السابق، وعدتُ إلى طاولتي وأنهيتُ قهوتي.

لم أبدأ بالقلق إلا عندما أسقط أحد نزلاء الفندق قطعة خبز على الأرض. ليس لأنني أجهل أن هذا النوع من الحوادث يتكرر في فنادق العالم، بل لأن النزيل نفسه أسقط قطعة خبز في المكان نفسه في اليوم السابق. كانت شريحة خبز أبيض، بنفس حجم تلك التي أسقطها في اليوم السابق، وسقطت بنفس السرعة، بانحدار خفيف، ما يدل على خفة وزنها. كانت تصرفات النزيل مماثلة تمامًا؛ فقد تردد وهو ينحني لالتقاط الخبز، ثم ما إن التقطه حتى بدا عاجزًا عن...

قرر ماذا سيفعل به. كان واضحًا أنه متردد بين قاعدتين من قواعد السلوك: إحداهما تنص على عدم رمي الطعام الجيد، والأخرى تعتبر الطعام المتساقط من أطباق وسلال وأكواب المجتمع نفايات. لاحظتُ الآن نفس الحركة الخفية التي قام بها في اليوم السابق، عندما قرر، بعد نظرة سريعة حول الغرفة، وضع الخبز في سلة المهملات وأخذ كرواسون بدلًا منه.

في اللحظة التي رأيت فيها هذا التردد، أدركت أنني أشهد تكرارًا لما حدث. لم أكن أعلم أن يوم 18 نوفمبر سيأتي في اليوم التالي، ثم يوم آخر، ثم يوم آخر، لكنني كنت أعلم أن هناك خطبًا ما.

خرجتُ فورًا لأتأكد من التاريخ في الصحف من أقرب كشك، ثم توجهتُ إلى جهاز الصراف الآلي وسحبتُ مبلغًا من بطاقتي الائتمانية، وبعد ذلك بوقت قصير، اتصلتُ بفندقين مختلفين لألقي نظرة على التقويم في مكتب الاستقبال، ليس لشكّي في التاريخ، بل لأنني كنتُ بحاجة إلى حلّ حيرتي. أكّدت التواريخ في الصحف، وإيصال الصراف الآلي، وتقويم الفندقين أنه بالفعل الثامن عشر من نوفمبر. كان الطقس أيضًا على حاله؛ فقد أمطرت السماء أثناء تناولي الفطور، لكنها الآن صافية. تجولتُ في الشوارع المبتلة ورأيتُ أولى المحلات تفتح أبوابها. بدا أنه سيكون يومًا باردًا مشمسًا جزئيًا.

عند عودتي إلى الفندق، اتصلت بتوماس بحجة أنني نسيت موعدي مع نامي شاريه في مكتبة 18 في كليشي. أكد لي هذا أن موعده بالنسبة لتوماس هو الثامن عشر من نوفمبر أيضًا. كان موعدي في التاسع عشر. قال لي: غدًا، الساعة الحادية عشرة صباحًا، وكان واضحًا أنه يعتبر هذا اليوم هو الثامن عشر من نوفمبر الأول والوحيد في السنة، يوم جديد لم يمسه أحد تقريبًا. كان اليوم التالي لليوم السابع عشر من نوفمبر واليوم السابق لليوم التاسع عشر، وهو اليوم الذي سأعود فيه إلى المنزل كما هو مخطط.

من حديثنا القصير، اتضح جلياً أن كل ما أخبرته به في الليلة السابقة عن يومي قد تبدد، وأنه لا يتذكر هو الآخر يومه الممطر في نوفمبر. بالنسبة له، لم يذهب إلى مكتب البريد حاملاً أي رسائل أو طرود. لم يذهب إلى أي نهر، ولم يتبلل من أي مطر.

لم يتذكر شيئًا عن مكالمتنا الهاتفية مساء الثامن عشر. لم تكن هناك أي معلومات مخزنة في ذاكرته عن زيارتي لفيليب موريل، لا ماري، ولا مدفأة غاز، ولا حرق أو مكعبات ثلج. لم يكن هناك أي سجل لـ"أو بوتابل" أو "هيفنلي بوديز"، ولا نقاشات حول تمييزات جوسلين ميرون. فقط محادثتنا السابقة. من الليلة السابقة. السابع عشر.

بعد ذلك، جلستُ في غرفتي بالفندق، على السرير غير المرتب، وظهري إلى الحائط وهاتفي بجانبي. حرصتُ على أن تكون أسئلتي خفيفة. لم أُرِد أن أُقلقه، أردتُ فقط أن أعرف إن كان الأمر يقتصر عليّ وحدي، وقد كان كذلك. لم يكن لدى توماس أي احتفال بيوم 18 نوفمبر.

لا بد أن الأمر استغرق حوالي خمس عشرة دقيقة، أو ربما نصف ساعة، قبل أن تقع عيني على الكتب. كانت الكومة الصغيرة قد تقلصت. اختفت الكتب التي اشتريتها في الثامن عشر من الشهر. وعلى الطاولة في الغرفة كانت المجلدات التي اشتريتها في السابع عشر: أطلس العناكب، تشريح الحيوانات، وموسيقى طيور الطبيعة. لكن كتابي تاريخ المياه الصالحة للشرب والأجرام السماوية لم يعودا موجودين.

بعد نصف ساعة، نزلتُ إلى مكتبتي الكتب القديمة اللتين اشتريتُ منهما هذه الكتب. لم تكن إحداهما قد فتحت بعد، ولكن بعد دقائق، عندما فتحتُ باب المكتبة الأخرى، رأيتُ كتاب "الأجرام السماوية" لثورنتون على الفور: هناك على الرف خلف المنضدة، في نفس المكان الذي أخذه منه البائع في اليوم السابق. من الواضح أن البائعة، التي قابلتها عدة مرات في المزادات وفي متجرها في شارع رينارت، لم تتذكر وجودي في المتجر في اليوم السابق أو أنني بعتُ الكتاب. اشتريتُه مرة أخرى، واعتذرتُ عن استعجالي، وعدتُ إلى المكتبة الأخرى، التي كانت مفتوحة الآن، وسألتُ صاحبها إن كان لديه نسخة "تاريخ المياه الصالحة للشرب" التي طلب منه توماس أن يحتفظ بها. أخرج الكتاب على الفور وسأل عن توماس، الذي كان يعتقد أنه تحدث إليه في اليوم السابق. بالأمس، كما قال. ثم ذكر ثلاثة عناوين أخرى كان قد أراني إياها أيضًا في زيارتي في اليوم السابق والتي كنتُ قد اشتريتها بالفعل وطلبتُ إرسالها إلى كليرون. لم أشترِها هذه المرة، لكنني دفعت ثمن كتاب "Histoire des Eaux Potables"، ووضعته في حقيبتي بجانب كتاب "Thornton's Heavenly Bodies"، ثم عدت إلى الفندق سيراً على الأقدام.

في طريقي، مررتُ بمتجر فيليب، حيث أخبرتني مساعدته، التي عرفتها الآن باسم ماري، أن فيليب قد خرج للتو، لكنه سيعود في وقت متأخر من بعد الظهر. لم تُبدِ أي إشارة إلى أنها تعرفني، ولم أشعر برغبة في الإصرار على أننا نعرف بعضنا.

على المنضدة، لفت انتباهي سسترتيوس روماني كان فيليب قد أراني إياه في الليلة السابقة. كان موضوعًا في علبة شفافة مع عملتين رومانيتين أخريين. كانت عملة نحاسية تحمل صورة الإمبراطور أنطونيوس بيوس على أحد وجهيها، وعلى الوجه الآخر نقش بارز متقن للإلهة أنونا، تحمل سنبلتين من القمح في يد ومكيالًا في اليد الأخرى. سمحت لي ماري بالنظر إلى التفاصيل من خلال عدسة مكبرة، وشرحت أن مكيال الحبوب - أو ما أسمته "موديوس" - يشير إلى أن هذه هي أنونا، التجسيد الإلهي لإمدادات الحبوب الضرورية لاحتفاظ الإمبراطورية بالسلطة في روما. قالت ماري إن أنطونيوس بيوس، كغيره

من الأباطرة، كان بحاجة إلى استيراد كميات هائلة من الحبوب لتجنب الاضطرابات، وكانت أنونا إلهة مهمة. وأضافت بعد صمت: "كما كنت متأكدة من أنني أعرف". أومأت برأسي، وللحظة شعرت بنوع من الألفة، ربما لمحة من الإدراك. لكن لا بد أنني كنت مخطئة. ربما كان مجرد أمنية.

اشتريتُ السسترتيوس وطلبتُ تغليفه كهدية. وبينما كانت ماري تضع العملة في علبة زرقاء رمادية وتغلفها، تجولتُ في أرجاء المتجر. في الغرفة الأمامية، كان هناك المكتب الكبير الذي جلسنا حوله في الليلة السابقة، والذي كانت ماري تغلف عليه الآن السسترتيوس. على الحائط خلف المكتب، كانت هناك العديد من الأدراج والخزائن التي تحتوي على عملات معدنية، وعلى جدران الغرفة المجاورة، كان فيليب يعرض تشكيلة واسعة من بضاعته في خزائن زجاجية. دخلتُ الغرفة، وحتى لا أبدو ملفتًا للنظر، استدرتُ إلى اليسار وسرتُ ببطء على طول الخزائن التي تصطف على الجدران، والتي رُتبت عليها العملات بترتيب زمني. احتوت الخزانة الأولى على مجموعة متنوعة من العملات المعدنية التي تعود إلى ما قبل العصر الروماني، معظمها يونانية، ومجموعة صغيرة من العملات الهندية والصينية، وهي مجموعة كان فيليب يخطط لتوسيعها، ولكنها لا تزال معروضة حاليًا على أطراف الإمبراطورية الرومانية. تحت نافذة طويلة تُطل على الشارع، كانت هناك خزانة كتب منخفضة تحتوي على كتالوجات وكتب. وعلى الجدران الأخرى كانت هناك خزائن للعملات الرومانية مرتبة وفقًا للفترات المختلفة وإصلاحات سك العملة. عبرتُ إلى الخزائن التي تحتوي على عملات من العصر الروماني.

تأملتُ في عرض فيليب البسيط، الذي جعل سلسلة الأباطرة تبدو وكأنها تسلسل زمني مباشر، سلسلة من الوجوه، تتوالى بسلاسة، رابطةً بين أجزاء تلك الحقبة. كانت هذه الجولة بين خزائن العرض مألوفة لي، فقد قمتُ بها مرات عديدة من قبل. طمأنتني صور الأباطرة والإمبراطورات الرومان، وآلهتهم وإلهاتهم، والرموز والأشياء الصغيرة المصممة لتعريفنا بهم، ومنحتني الوقت للتأمل في الأمر.

بعد تجاوز آخر خزانة زجاجية، تحوي قطعًا أثرية من فترة سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية وعددًا من العملات البيزنطية، كان باب الغرفة الخلفية للمتجر مفتوحًا. على طول أحد الجدران، اصطفت طاولة المطبخ وثلاجة وحوض غسيل، وعلى الجانب الآخر صف من الخزائن. خلف الخزائن، كانت هناك بعض الصناديق، وخلفها كان يقف مدفأة الغاز التي كانت موجودة في اليوم السابق.

انتظرتُ لحظةً، ثم بينما كانت ماري تُجيب على الهاتف، تسللتُ إلى الغرفة الخلفية. وكما توقعت: في أقصى الغرفة، في زاويةٍ مُنعزلة، كانت هناك أسطوانة غاز زرقاء ومدفأة مُغطاة بطبقةٍ من الغبار لم تُمس.

لا يزال أثر الحرق على يدي يؤلمني قليلاً، لكنني اعتدت على الألم لدرجة أنني لم أعد أعر له اهتماماً إلا إذا اصطدمت يدي بشيء أو قمت بحركة مفاجئة. طالما أبقيت يدي ثابتة، كان الألم مجرد ضجيج خفيف في جهازي العصبي، لا شيء يُذكر، مجرد إصابة طفيفة، حرق من مدفأة مغبرة لم تُستخدم منذ الشتاء الماضي.

أسرعتُ عائدًا إلى ماري، دفعتُ ثمن عملتي السسترتيوس، وغادرتُ المتجر. كانت العملة لتوماس. لم أكن قد قررتُ بعدُ ما إذا كنتُ سأعود إلى المنزل إليه فورًا أم سأنتظر. وفقًا لخطتي الأصلية، كان من المفترض أن أكون الآن في طريقي إلى مكتبة رقم ١٨، لكن ذلك كان مبنيًا على افتراض أن الليلة ستحلّ التاسع عشر من نوفمبر. لم يحدث هذا، لذا ذهبتُ بدلًا من ذلك إلى صيدلية واشتريتُ كريمًا مضادًا حيويًا وعلبة ضمادات كبيرة.

عند عودتي إلى الفندق، أخرجت ضمادة لاصقة مستطيلة كبيرة من علبة الصيدلية ووضعتها على الحرق الذي أصبح منتفخاً قليلاً.

انتابني القلق. ثم اتصلت بتوماس. أخبرته عن الخلل الزمني الذي اكتشفته، والذي لم يلاحظه أحد سواي، واعترفت أن هذا كان السبب الحقيقي لاتصالي به قبل ساعتين. لم أكن أريد إقلاقه، لكنني لم أجد ما أفعله سوى إخباره بالمشكلة. خلال الدقائق التالية، سردت له أحداث الثامن عشر من نوفمبر، بما في ذلك تفاصيل لا حصر لها لم تعد واضحة في ذاكرتي. أخبرته عن زياراتي لمكتبات الكتب القديمة، وعن الكتب التي اشتريتها للمرة الثانية، وعن زيارتي لماري ومدفأة الغاز المغبرة في المتجر الخلفي. لم أخبره عن عملة السسترتيوس التي اشتريتها له، لكنني أعتقد أن معظم أحداث الثامن عشر من نوفمبر، في كلتا المرتين، سردتها في حديث مطول استمع إليه توماس دون تعليق أو سؤال تقريبًا.

اليوم، ما أتذكره بوضوح من تلك المحادثة هو الخلل الذي نشأ فجأة بيننا عندما أشرت إلى حديثنا في الليلة السابقة. بدأ توماس يطرح أسئلة، ونبرة قلق واضحة في صوته. لقد أدرك أنه كان جزءًا من احتفالي بيوم 18 نوفمبر، وأنه تحدث إليّ وأخبرني عن يومه. استطعتُ أن أصف له يومه، وأن أصف له الطقس والأحداث التي لم يعد يتذكرها.

لم يشك في صدقي. لقد تحدث إليّ ونسي الأمر. هذا ما أخافه. كان من الطبيعي أن أشعر بخلل في تسلسل الزمن، لكن فكرة أنه كان له

دور في يومي، وأنه دار بيننا حديث وفعل أشياء لا يتذكرها، منحته نفس مشاعر الدوار والقلق التي انتابتني عندما رأيت قطعة الخبز تتساقط على الأرض. تلك اللحظة الغريبة التي ينهار فيها كل شيء من تحت قدمي، وفجأة أشعر وكأن كل شيء يمكن التنبؤ به قد توقف، وكأن إنذارًا وجوديًا قد انطلق فجأة، حالة من الذعر الصامت لا تدفع إلى الفرار ولا إلى طلب النجدة، ولا تستدعي الشرطة أو الإطفاء أو الإسعاف. يبدو الأمر كما لو أن آلية الاستجابة للطوارئ هذه موجودة في حالة تأهب في أعماق العقل، كصوت خافت، لا يُسمع عادةً، ولكنه ينطلق في اللحظة التي يواجه فيها المرء عدم القدرة على التنبؤ بالحياة، ومعرفة أن كل شيء يمكن أن يتغير في لحظة، وأن شيئًا ما لا يمكن أن يحدث، ومع ذلك يحدث بالفعل.

مع ذلك، يبقى احتمال عدم التوقع قائماً. أن يتوقف الزمن. أن تتوقف الجاذبية. أن ينهار منطق العالم وقوانين الطبيعة. أن نُجبر على الاعتراف بأن توقعاتنا بشأن ثبات العالم هشة. لا توجد ضمانات، وخلف كل ما نعتبره عادةً يقيناً تكمن استثناءات غير محتملة، وثغرات مفاجئة، وانتهاكات لا يمكن تصورها للقوانين المعتادة.

يبدو لي غريباً الآن كيف يمكن للمرء أن ينزعج إلى هذا الحد من أمرٍ غير محتمل. ونحن نعلم أن وجودنا برمته قائم على أحداثٍ غريبة ومصادفاتٍ غير متوقعة. وأننا ما كنا لنوجد لولا هذه التقلبات العجيبة للقدر. وأن هناك بشراً على ما نسميه كوكبنا، وأننا نستطيع التحرك على كرةٍ دوارة في كونٍ شاسع مليء بأجسامٍ ضخمة لا يمكن تصورها، تتكون من عناصر متناهية الصغر لدرجة أن العقل يعجز عن استيعاب مدى صغرها وكثرتها. وأنه في هذا الاتساع الهائل، لا تزال هذه العناصر المتناهية الصغر قادرة على التماسك. وأننا ننجح في البقاء. وأننا موجودون أصلاً. وأن كل واحدٍ منا قد وُجد كواحدٍ من احتمالاتٍ لا تُحصى. إن ما لا يُتصور هو شيءٌ نحمله معنا دائماً. لقد حدث بالفعل: نحن غير محتملين، لقد انبثقنا من سحابةٍ من المصادفات التي لا تُصدق. قد يظن المرء أن هذه المعرفة ستُهيئنا، ولو بشكلٍ بسيط، لمواجهة ما هو غير محتمل. لكن يبدو أن العكس هو الصحيح. لقد اعتدنا على العيش مع هذه المعرفة دون الشعور بالدوار كل صباح، وبدلاً من التحرك بحذر وتردد، في دهشة دائمة، نتصرف كما لو لم يحدث شيء، ونعتبر غرابة كل شيء أمراً مفروغاً منه، ونشعر بالدوار إذا أظهرت لنا الحياة نفسها على حقيقتها: غير محتملة، وغير متوقعة، ورائعة.

ثم يبدأ نظام الاستجابة الطارئة. وأنا جالس في غرفتي بالفندق، ما زلتُ مذهولاً مما رأيته من سقوط شريحة الخبز مراراً، أدركتُ أن هذا ما

حدث لتوماس. عرفتُ ذلك من صوته. الذعر الصامت حين أدرك ما حدث، ومحاولاته المترددة لإيجاد تفسير منطقي. لم تكن المشكلة في الخط. بل كانت الأرض تنهار من تحت قدميه، ونظام الاستجابة الطارئة يُفعّل، وصندوق الإسعافات الأولية يُفتح. الباب يُفتح على عالم كل شيء فيه قابل للتغيير.

الزمن يتلاشى، واليوم يتكرر، والتجارب تختفي من الذاكرة دون أثر، والغبار يعود إلى أماكن كان من المعروف أنه قد مُحي منها.

عادةً، تعود الأمور إلى نصابها: لقد كان خطأً. يُفسَّر هذا الحدث الغريب ببساطة: خدعتنا أعيننا، أو خانتنا ذاكرتنا، أو اختلطت علينا الأمور، أو أخطأنا في تحديد الأيام. تعود الأمور إلى نصابها، ويصبح ما كان غامضًا منطقيًا في النهاية، لقد كان مجرد وهم بصري أو زلة ذهن، أو حلمًا أو سوء فهم، وقد عاد العالم إلى نصابه، وزال الدوار، وأصبح بإمكاننا التنفس بسهولة أكبر.

لكن ليس هذه المرة. لقد رأيتُ قطعة خبز تسقط يومين متتاليين، ولم يكن هناك أي سوء فهم. رأيتُ ماري تمسح طبقة من الغبار عن مدفأة كانت الآن مغبرة تمامًا كما كانت عندما وجدناها في الغرفة الخلفية لمتجر فيليب موريل. تحدثتُ إلى توماس. أخبرني عن يومه. تذكرتُ يوم 18 نوفمبر، بينما لم يتذكره توماس، لكننا كنا نعلم أنني أقول الحقيقة. لم أكن مخطئًا. لم يكن هناك أي لبس أو سوء فهم. كنتُ أعلم أنني على صواب، ولم يرَ توماس أي سبب للشك بي.

قال توماس إنه سيعيد النظر في اليوم. ما زلت أسمع القلق في صوته. بدا متلهفًا لإنهاء الحديث. كان سيخرج في نزهة وسيعاود الاتصال بي بعد قليل. اتصل بعد أكثر من نصف ساعة بقليل، وكان قد تصفح الإنترنت، وقرأ عدة صحف، ودخل إلى بنكين، ومتجر أدوات مكتبية، وكان يجلس الآن في مقهى "لا بوتيت إيشيل" في وسط كليرون. كان المطر خفيفًا، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بقليل، وكان قد سمع للتو رنين أجراس الكنيسة المجاورة للمقهى، وكان متأكدًا من أنه الثامن عشر من نوفمبر.

لم يستطع تفسير الأمر، لكن حقائق ذلك اليوم كانت واضحة: استيقظتُ على نفس يوم الثامن عشر من نوفمبر ليومين متتاليين، وكل ما كان يدور حولي كان يحدث تمامًا كما حدث في اليوم السابق، لقد كان نسخة طبق الأصل من ذلك اليوم الذي سبق أن خزّنته في ذاكرتي. أما توماس، من ناحية أخرى، فلم يشعر بأي إحساس بالألفة، ولم يستطع أن يلحظ أدنى إشارة تدل على أنه ربما يكون قد عاش هذا اليوم من قبل. كل ما كان...

تذكر محادثتنا في السابع عشر من الشهر - وكان يجد صعوبة في عدم الإشارة إلى ذلك على أنه بالأمس.

أمضينا بضع دقائق نتناقش في تفسيرات محتملة مختلفة: هلوسات أو ومضات ذاكرة، سوء فهم أو تأويل خاطئ، حلقات زمنية أو أكوان متوازية، لكننا لم نجد أي تفسير منطقي. لم يؤمن أي منا بإمكانية وجود بوابات إلى أبعاد مجهولة، وكان التفسير الأوضح، بالطبع، أنني تخيلت الأمر برمته، أنه مجرد هلوسة، خيال جامح، حلم. لكن فكرة أن يكون يوم 18 نوفمبر بأكمله مجرد حلم، وهم من خيالي، هلوسة، لم تكن مقنعة: فالأوهام لا تترك آثار حروق، ولا يحلم المرء بصحيفة صباحية كاملة، ولا يصادف عادةً نسخة طبق الأصل من هلوساته في غرفة إفطار فندق باريسي من فئة ثلاث نجوم. لقد حيرنا الأمر. الشيء الوحيد الذي يمكننا قوله على وجه اليقين هو أنني كنت أنظر إلى عالم عاد إلى نقطة بدايته خلال الليل، لقد قفز إلى الوراء يومًا واحدًا، ليتكشف مرة أخرى بنفس الطريقة تمامًا كما في اليوم السابق.

كان من الصعب تحديد ما يجب فعله. درسنا عدة حلول: إما أن أبقى حيث أنا وأرى ما سيحمله اليوم، أو أن أعود إلى المنزل فورًا، إلى توماس، الشخص الوحيد المتأثر بهذا الخلل الزمني، والذي يُرجح أنه الوحيد الذي أستطيع مشاركة هذه الظاهرة الغريبة معه دون أن أُقابل بالشك أو يُنظر إليّ على أنني مجنونة أو غريبة الأطوار أو ببساطة كاذبة. كان بإمكان توماس، بالطبع، أن يأتي إلى باريس لنبحث في الأمر معًا أو ننتظر حتى يعود كل شيء إلى طبيعته، لكنه لم يعتقد أن هذا سيحل المشكلة، وكلما طال حديثنا، ازداد وضوحًا أن الحل الوحيد هو عودتي إلى المنزل. لم يكن بوسعنا فعل الكثير هنا والآن. كان عليّ العودة.

أنهينا المكالمة، ووعدنا بعضنا باللقاء قريبًا. رتبت أغراضي بهدوء. جمعت الكتب، ولففتها بعناية، ووضعتها في حقيبتي، ثم ارتديت معطفي وانطلقت إلى المحطة، ووصلت بعد نصف ساعة. بعد انتظار دام قرابة الساعة، استقليت قطارًا إلى ليل، حيث غيرت القطارات وتابعت رحلتي إلى كليرون سو بوا.

كان الظلام قد حلّ عندما نزلت من القطار في كليرون. حاولت الاتصال وحجز سيارة أجرة لكنني لم أتمكن من ذلك، فقررت المشي مسافة ميل ونصف من محطة القطار إلى منزلنا. بدأ المطر بالهطول بينما كنت في القطار، واشتدت الرياح قليلاً، فخرجت إلى المطر الغزير حاملاً مظلتي المفتوحة في يد وحقيبتي على كتفي الآخر. كانت الساعة حوالي السابعة مساءً، وكان الطريق مبتلاً، والجو مظلم وبارد، ولم يخف المطر إلا لثوانٍ معدودة في كل مرة. عاد الحرق في يدي، الذي لم أكن أعي وجوده جيداً في القطار، ليُشعرني بألم حارق مع كل خطوة

أخطوها. شعرتُ بالضمادة ترتخي تحت المطر، وكنت أضطر بين الحين والآخر للتوقف ومحاولة تثبيتها أو تبديل حقيبتي ومظلتي، لكن دون جدوى، كان الألم ينتقل للحظات ثم يعود.

الغريب في الأمر، أن رحلة الذهاب من المحطة إلى منزلنا كانت تبعث على الراحة. وكأن المشي كان مناسبًا للوضع، والبرد، وعدم الراحة، وألم الحرق، كلها تعكس اضطرابي الداخلي. لم يكن الأمر مجرد شعور بأن شيئًا ما قد حدث خطأً، ولا مجرد إحساس بالبرد والقلق وعدم الراحة. كان هناك أيضًا شعور بأن هناك حلًا ما في مكان ما؛ قناعة بأنه إذا واصلت المشي في البرد والمطر، إذا تحملت ألم يدي، إذا واصلت السير ممسكًا بالمظلة بإحكام وحاملًا الحقيبة الثقيلة على كتفي، إذا واصلت السير تحت المطر، خطوة بخطوة، فسأصل إلى منزل، إلى غرفة دافئة، وإلى توماس، الذي ينتظرني هناك. كنت وحيدًا، أُهاجم بالماء والبرد، ويدي محروقة وحقيبة مليئة بالكتب على كتفي، لكن الوضع لم يكن ميؤوسًا منه، وطالما أن هناك مأوى من المطر، وملابس جافة، وتوماس ينتظرني في نهاية رحلتي، فسيُمكن إيجاد حل. كان عليّ أن أتحمل هذا المشي تحت المطر.

عندما وصلتُ، كان كل شيء كما توقعت. كان مصباح الشارع خارج المنزل يُلقي بظلال مألوفة من شجيرات الحديقة الأمامية على جدار المنزل المبلل. كانت حديقة الخضراوات غارقة في شبه ظلام، وكان باب سقيفة الحديقة الأبيض مرئيًا من الشارع. قادني الممر الحجري من الشارع إلى الباب الأمامي، كما هو الحال دائمًا. كان شهر نوفمبر، وكان المطر يهطل، وكنتُ قد زرتُ بوردو، ومنها إلى باريس، وزرتُ فيليب موريل، واشتريتُ كتبًا، ثم عدتُ.

وصلتُ إلى المنزل بعد يومين كما هو مُخطط. كان الخلل الوحيد هو أنني لم ألتزم بموعدي مع نامي شاريه، وأن التاسع عشر من نوفمبر لم يكن موجودًا. اختلاف بسيط، خطأ في تسلسل الأرقام. خلل في الزمن، خطأ لم أستطع إصلاحه على الفور، ولم أستطع تقدير مداه بعد، وبالتالي لم أستطع وصفه بالتافه أو الكارثي، ولكنه في تلك اللحظة، وأنا أسير على الطريق الأمامي المؤدي إلى المنزل، أصبح تفصيلاً يمكن تأجيله.

على مدار الأيام التي انقضت منذ نزهتي تحت المطر، تفاقم ذلك الخلل الزمني البسيط: خطأ في التقويم لم يعد بالإمكان تجاهله. أتذكر شعوري في تلك الليلة حين عدت إلى المنزل من المحطة. للحظة خاطفة، رأيت هذا الخلل الزمني مجرد تفصيل، مشكلة يمكن حلها، رحلة في البرد والمطر ستنتهي قريبًا، لكنني تذكرت حينها أنه ليس

تفصيلًا يمكن تجاهله ببساطة. لم يختفِ الخطأ، بل ازداد اتساعًا، ولا أعرف كيف أمحوه.

لوّح لي توماس من نافذة المطبخ حالما ظهرتُ في ضوء مصباح الشارع. تلاقت أعيننا للحظة، ثم رفع يده التي توقفت في الهواء وهو يستدير مسرعًا نحو الباب. التقينا عند المدخل. نفضتُ الماء عن مظلتي، وسرعان ما سحبني توماس إلى الدفء والجفاف، إلى داخل المنزل، وأخذ مني أولًا مظلتي وحقيبتي، ثم معطفي. وبقينا هناك، يفصل بيننا يوم واحد فقط، كما لو كنتُ قد سافرتُ في رحلة عابرة، لا رحلة عادية تمامًا، فقد تغيّر شيء ما. كان هناك شعورٌ بالقلق يلفّ لقاءنا، ومع ذلك شعرتُ أنني وصلتُ إلى بر الأمان، كما لو أنني نجوتُ من حادثٍ مروع، حريق فندق، أو حادث سيارة، أو كارثة قطار كادت أن تقع. لقد نجوتُ من الخطر وعدتُ إلى المنزل. غمرني شعورٌ بالراحة، وخفّ ألم كتفي، وتلاشى ألم يدي، وشعرتُ بقميص توماس يتبلّل من المطر الذي جلبته إلى المنزل.

ما إن وصلتُ إلى الردهة وخلعتُ حذائي، حتى صعد توماس إلى غرفة النوم ليحضر لي سترة دافئة. حملتُ حقيبتي المبللة إلى غرفة المعيشة، وأخرجتُ الكتب التي لحسن الحظ لم تتضرر من المطر، ووضعتها على الطاولة. ثم أخرجتُ ملابس جافة من قاع الحقيبة، وبدلتُ ملابسي، وارتديتُ السترة التي أحضرها لي توماس.

ارتديت ملابسي وجلست على أحد الكرسيين المريحين بجوار نافذة غرفة المعيشة. أعدّ توماس الشاي، وحمل كوبين إلى غرفة المعيشة، وجلس على الكرسي الآخر. وهناك جلسنا، على كرسيينا، وطاولة منخفضة تفصل بيننا، نشعر بالارتياح لوجودنا معًا، وتحدثنا عن الطقس، والكتب، وفيليب وماري، وحادثتي مع مدفأة الغاز، وحرقي الذي أريتُه إياه بسحب ضمادة الجرح الكبيرة جانبًا. كان الجرح الآن أحمر اللون وينزف، لكنه لم يعد مؤلمًا بشكل خاص، ليس الآن، وأنا أجلس هناك بسلام في الدفء.

حافظنا على حيادية الحديث. تجنبتُ بدقة استخدام كلمات قد تُفسَّر بشكل مختلف، مثل "أمس" أو "أول أمس". قلتُ "اليوم" و"السابع عشر" و"مساء اليوم الذي ذهبتُ فيه لرؤية فيليب"، وبهذه الطريقة تمكنّا من التحدث عن رحلتي دون سوء فهم يُذكر.

أعطيتُ توماس عملة السسترتيوس الرومانية. أخبرته أنني اشتريتها صباح ذلك اليوم الذي زرت فيه متجر فيليب لأتفقد سخان الغاز غير المستخدم. توماس ليس جامعًا للعملات، ولا يهتم كثيرًا بقيمة العملات أو ندرتها، لكنه مع ذلك جمع على مر السنين مجموعة صغيرة

جديرة بالذكر. على حد علمي، لا يتبع نظامًا محددًا في اختيار مقتنيات مجموعته، التي يحتفظ بها في صندوق كرتوني متين. لا تقتصر مجموعته على العملات المعدنية فحسب، بل تضم أيضًا بعض طوابع البريد، وعددًا من النقوش الصغيرة، وكتابين مصورين صغيري الحجم.

هذه المجموعة، إن صحّ التعبير، هي من الأشياء القليلة التي لا يزال توماس يحتفظ بها من أيام ما قبل أن نعرف بعضنا. هذا بالإضافة إلى المنزل، بالطبع، الذي ورثه عن جده لأبيه بعد عام أو عامين من لقائنا، والحديقة التي لا تزال تبدو كما كانت في طفولته. ورثنا منزلًا مليئًا بأشياء عرفها منذ صغره: الكرسيان، والسجادة ذات اللونين الأبيض والأسود في غرفة المعيشة، والأكواب على الطاولة الصغيرة بيننا، والمكتب في الطابق العلوي، والأدوات في الحظيرة، وخزانة الكتب في غرفة المعيشة، وجهاز الستيريو القديم الذي لا يزال يعمل. أما بقية أثاثنا فهو من شقتي في بروكسل، التي انتقل إليها توماس بعد فترة وجيزة من لقائنا. أحضر معه عدة صناديق من الكتب القديمة - نواة ما أصبح لاحقًا متجر "تي آند تي سيلتر" - والصندوق الذي يحتوي على مجموعته الصغيرة من الأشياء، والذي ظننتُ حينها أن العملة الرومانية من فئة السسترتيوس تنتمي إليه.

بقينا في غرفة المعيشة معظم المساء. لقد عدتُ. كنا معًا من جديد. ونحن نجلس هناك تلك الليلة مع فناجين الشاي، بدا العالم طبيعيًا تقريبًا. مع ذلك، كان من المستحيل تجنب الشعور بالقلق الذي أثاره هذا الخلل في الزمن. على مدار تلك الساعات، تناولنا الموضوع من زوايا مختلفة، لكننا لم نتمكن من التوصل إلى تفسير أو حل. توماس، رغبةً منه في طمأنتي أو ربما طمأنة نفسه، ظن أن المشكلة قد تختفي ببساطة. في لحظة ما، أشار عرضًا إلى أن الزمن لا بد أن يعود دائمًا إلى مساره الأبدي إلى الأمام. لطالما اضطر الناس إلى مراعاة بعض الاضطرابات في الحياة، كفيضان الأنهار، وحوادث الطرق، والتواء الكاحل، وفصول الشتاء القاسية أو الجفاف، لكن في النهاية، كما قال، ها نحن ذا، كما لو لم يحدث شيء. لم يمت أحد، ولم يُصب أحد بأذى.

كنتُ قلقة. حرصًا على سلامتنا، أخذتُ الكتب التي أحضرتها من باريس إلى غرفة النوم معي عندما ذهبنا إلى الفراش تلك الليلة. وضعتها عند أسفل السرير قبل أن نتغطى باللحاف ونحتضن بعضنا، دون أن نتحدث عن خططنا لليوم التالي كما هو معتاد. ربما ظننا أن فرص عودة الأمور إلى طبيعتها ستكون أكبر إذا تصرفنا وكأن شيئًا لم يكن.

سرعان ما أدركت أن توماس كان يغفو. سمعت أنفاسه، ورأيت لمحة من ملامح وجهه، وأظن أنني رأيته يفتح عينيه للحظة. لم أعد متأكدًا مما رأيته هناك في الظلام، لكن ما أتذكره الآن هو نظرة خاطفة لا

أستطيع وصفها إلا بأنها تحمل شيئًا من اللوم الخفيف، وكأنني أنا من خذله، لا الوقت، وقلب عالمه رأسًا على عقب.

أغمض عينيه فوراً. لا أعرف إن كان قد نام مباشرةً، ولكن بعد بضع دقائق، عندما تأكدت من أنه نائم، أبعدت ذراعه عنه وابتعدت عنه برفق شديد.

كنت لا أزال قلقة. شعرت بالكتب عند أسفل السرير، وبدافع من فرط الاندفاع سحبت كتابي "تاريخ المياه الصالحة للشرب" و"الأجرام السماوية" من الكومة هناك ووضعتهما تحت وسادتي قبل أن أغفو أنا أيضاً.

في صباح اليوم التالي، استيقظتُ قبل توماس، وبدا كل شيء طبيعيًا في البداية. شعرتُ بملاءات السرير تلامس بشرتي، وتوماس مستلقٍ بجانبي. شعرتُ ببرودة في الهواء، وضوء خافت يتسلل من النافذة. لبرهة، ربما لبضع دقائق، أو ربما لثوانٍ معدودة، شعرتُ وكأنني أستقبل صباحًا عاديًا تمامًا - شعور مألوف بالوضع الطبيعي. كنتُ مستيقظة، وتوماس نائمًا.

بعد لحظات، أدركتُ أنني لم أستيقظ ببساطة في السرير بجانب توماس في صباح عادي تمامًا. في البداية، كان مجرد شعورٍ خفيفٍ بالقلق، شعورٌ بأن شيئًا ما ليس على ما يرام، وأنني نسيتُ شيئًا، وأن شيئًا ما قد غاب عني، ولم أُدرك ما كان يُقلقني إلا عندما لمستُ الكتب تحت وسادتي. تداعت تفاصيل الثامن عشر من نوفمبر إلى ذاكرتي مع الكتب، وفي تلك اللحظة نفسها تذكرتُ أنني كنتُ في باريس، وأنني استيقظتُ على الثامن عشر من نوفمبر بدلًا من التاسع عشر كما توقعت، وأنني عدتُ إلى المنزل تحت المطر، وأنني تحدثتُ إلى توماس، الذي كان نائمًا الآن في السرير بجانبي، وأنني وضعتُ كتابين تحت وسادتي قبل أن أنام، وهما الكتابان اللذان استعدتهما الآن. تحسستُ أسفل السرير فوجدتُ الكتب الثلاثة الأخرى، التقطتُها ورفعتُ الكومة بأكملها بحرص من على السرير إلى الأرض. ثم مددت يدي لأخذ سترة كانت معلقة على ظهر كرسي، وسحبتها فوق قميص نومي ونزلت إلى المطبخ.

كان الوضع لا يزال غامضًا. ربما كان الثامن عشر، أو التاسع عشر، أو حتى العشرين من نوفمبر. لم أكن أعرف، ولم أكن في عجلة من أمري لمعرفة ذلك. أعددت الفطور. سلقت البيض، وحمصت الخبز، وخلطت كمية من الموسلي، وقسمتها بين وعاءين ووضعتهما على الصينية. كان هناك تفاحتان من الحديقة في وعاء على سطح العمل، أخذت واحدة منهما، وأزلت بعض البقع البنية، وقطعتها إلى مكعبات،

ورششتها بالتساوي على وعاءي الموسلي. راقبت الوقت، وأعددت القهوة، لكنني تراجعت عن ذلك وأعددت إبريق شاي أيضًا. أحضرت الأكواب والصحون والسكاكين والملاعق. أحضرت الزبدة والجبن والمربى والعسل والحليب، ووضعت كل هذا على الصينية التي امتلأت عن آخرها. أخذت الصينية إلى الطابق العلوي، وتركتها على الدرج، ثم نزلت لأحضر أباريق القهوة والشاي، وحملتها إلى الطابق العلوي، ووضعتها على الدرج، ثم أخذت صينية الإفطار مرة أخرى وحملتها إلى غرفة النوم.

عندما دخلتُ حاملةً الصينية، كان توماس مستيقظًا. بدا عليه الذهول. بالنسبة له، كان اليوم هو الثامن عشر من نوفمبر، ليس للمرة الثانية أو الثالثة، بل للمرة الأولى. كان اليوم السابق هو السابع عشر. واليوم التالي هو التاسع عشر، وهو اليوم الذي كان من المفترض أن أعود فيه من رحلتي. لقد كانت عودتي ووقوفي هناك في غرفة النوم بصينية إفطار ممتلئة مفاجأةً له.

وضعتُ الصينية على السرير، وأخذتُ أباريق القهوة والشاي من الردهة ووضعتها على الطاولة بجانب السرير قبل أن أستلقي بجانب توماس. أخبرته عن زيارتي لباريس، وعن عودتي إلى المنزل، وعن أمسيتنا معًا. نظر إلى هاتفه وتحقق من التواريخ والأوقات، لكن كل ما عرفه هو أن اليوم هو الثامن عشر من نوفمبر، وأن الساعة التاسعة وسبع دقائق صباحًا. كان بإمكانه أن يرى أننا تحدثنا في السابع عشر. لم يكن هناك أي أثر للثامن عشر، ولم يتذكر شيئًا منه. لا مكالمات هاتفية، ولا عودة إلى المنزل، ولا مظلات مبللة، ولا معاطف مبللة. لم تكن هناك كتب أحضرناها إلى المنزل، ولا محادثات متحفظة، ولا كلمات مطمئنة. رأيتُ القلق في عينيه عندما وصفتُ له كيف مشيتُ تحت المطر من المحطة إلى منزلنا، وكيف رآني من نافذة المطبخ، وكيف لوّح لي بيده، لكنه لم يُكمل التلويح لأنه أدار وجهه. أريته كيف رفع يده، وأخبرته كيف التقينا عند الباب، وكيف بدا كل شيء طبيعيًا تقريبًا، وسارعتُ لأؤكد له أنني عدتُ الآن، وأننا في السرير، والفطور على صينية، وأننا معًا، ولم يمت أحد، ولم يُصب أحد بأذى. صحيح أن قطع التفاح التي نثرتها على الموسلي بدأت تذبل، وأن المشروبات الساخنة فقدت بعضًا من دفئها مع هواء الصباح، لكن هذا كل شيء. كنا معًا، يمكننا تناول الفطور معًا، ويمكننا قضاء اليوم بصحبة بعضنا.

أثناء تناولنا الطعام، تطرقنا بتردد إلى السؤال عما حدث. لم يكن توماس متأكدًا. ظنّ أنه يجب أن نرى كيف ستسير الأمور. أعتقد أنه كان بحاجة إلى التعود على الفكرة. أو ربما كان يأمل أن تتلاشى ذكرياتي عن يومي الثامن عشر من نوفمبر السابقين فجأة، وأن يظهر تفسير أكثر قبولًا

لعودتي. لكنني كنت أعرف مسبقًا ما يخبئه لنا ذلك اليوم. كان اليوم نفسه، الثالث من نوعه.

بعد الإفطار، تحقق توماس من التاريخ على جهاز الكمبيوتر في المكتب، وقرأ الأخبار وتوقعات الطقس وتحذيرات الفيضانات، لكن كل شيء كان يشير إلى يوم عادي تمامًا في الثامن عشر من نوفمبر. بعد قليل، اقترح أن نتمشى، ونتسوق، وربما نتمشى قليلًا إلى النهر. شعرتُ أنه من الأفضل الانتظار حتى فترة ما بعد الظهر عندما يتحسن الطقس، كما أخبرني توماس، على الرغم من أن توقعات الطقس لم تكن توحي بذلك تمامًا. وبالفعل، في تمام الساعة الثالثة والربع، توقف المطر، وبدأت الغيوم بالتلاشي، وظهرت الشمس. ارتدَينا ملابس دافئة، وتذكرنا مظلاتنا، وانطلقنا في نزهتنا المعتادة عبر الغابة وصولًا إلى النهر. مشينا إلى طاحونة المياه المتوقفة، وواصلنا السير على طول الطريق بجانب النهر الذي، على الرغم من كمية الأمطار التي هطلت في نوفمبر، لم يفيض بعد. واصلنا السير عبر الغابة إلى المدينة، حيث تسوقنا في السوق قبل العودة إلى المنزل.

جمعتُ الكتب الخمسة التي اشتريتها من بوردو وباريس ووضعتها في حقيبة ظهر أستخدمها عادةً عند التسوق. كان ذلك بمثابة إجراء وقائي فطري لم أستطع شرحه لتوماس. شعرتُ أن الكتب ستختفي إن لم أحتفظ بها قريبة مني، وعندما عرض توماس حملها، رفضتُ على الفور. في طريق عودتي عبر المدينة، لم أستطع مقاومة النظر من نوافذ البنك إلى التقويم المعلق على الحائط، واضطررتُ لاحقًا للتوقف والتحقق من التاريخ عند جهاز الصراف الآلي. في مكتب البريد في شارع بارييه، شعرتُ برغبة ملحة في التحقق من التاريخ على شاشة آلة بيع الطوابع، وكأنني أبحث عن ثغرة في سلسلة الدلائل التي تُشير إلى تكرار اليوم. لكن أينما نظرتُ، كان التاريخ هو نفسه. لم يكن هناك شك. كان الثامن عشر من نوفمبر للمرة الثالثة.

بدأت الغيوم تتجمع، والسماء الرمادية الباهتة، التي كانت تنقشع بين الحين والآخر لتكشف عن بقع زرقاء، أصبحت الآن داكنة. تساقط رذاذ خفيف في طريق العودة، لكننا وصلنا إلى المنزل قبل أن تنهمر السماء. بعد ذلك بوقت قصير، عندما أصبحت السماء مظلمة تمامًا وكان المطر ينهمر بغزارة، رأينا جارنا يمر بجوار السياج في أسفل الحديقة. استدار عند الزاوية وركض إلى منزله، وفتح بوابته واختفى عن الأنظار. أخرجت الكتب من حقيبتي ووضعتها

وضعوها على الطاولة في غرفة المعيشة، وعندما هدأ المطر، أحضر توماس بعض الحطب من الحظيرة وأشعل النار.

مارسنا الحب على أرضية غرفة المعيشة. لطالما كنا بحاجة إلى قضاء وقت معًا. لسنا من الأزواج الذين يحتاجون إلى فترات انفصال، ليشتاقوا لبعضهم البعض ثم يعيدوا اكتشاف بعضهم، ليرحلوا ثم يلتقوا مجددًا في لهيب الحب. المسافة والفراق واللقاءات ليست ما يربطنا ببعضنا. بالنسبة لنا، لطالما كان الأمر يتعلق بالأيام التي نقضيها معًا، يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة، مرارًا وتكرارًا. هناك توتر ينمو بيننا، مجال قوة يشتد مع مرور اليوم، حتى أننا غالبًا، بعد يوم طويل قضيناه معًا، نبدأ فجأة في خلع ملابس بعضنا. الآن استلقينا على الأرض، على السجادة السوداء والبيضاء بينما استمر المطر في الهطول في الخارج.

لطالما كان حبنا دقيقًا للغاية. إنه شيءٌ في الخلايا، جزيئاتٌ ومركباتٌ خارجةٌ عن سيطرتنا، تتصادم في الهواء المحيط بنا، موجاتٌ صوتيةٌ تُشكّل تناغماتٍ فريدةً حين نتحدث، يحدث ذلك على المستوى الذري أو حتى على مستوى الجسيمات الأصغر. لا توجد هاويةٌ أو مسافاتٌ في علاقتنا. إنه شيءٌ آخر، نوعٌ من الدوار الخلوي، نوعٌ من الكهرباء أو المغناطيسية، أو ربما تفاعلٌ كيميائي، لا أدري. إنه شيءٌ يحدث في الهواء بيننا، شعورٌ يزداد حدةً حين نكون بصحبة بعضنا. ربما نحن نظامٌ جوي - تكثفٌ وتبخر: نحن معًا، ننظر إلى بعضنا، نتلامس، نتكثف، نتقارب، نمارس الحب، ننام، نستيقظ ونعود إلى رابطنا الغريب، نظامٌ جويٌ هادئٌ بلا كوارث طبيعية. أو نظامٌ جويٌ لم يشهد كوارث حتى الثامن عشر من نوفمبر.

في ذلك المساء، أخذتُ الكتب إلى الطابق العلوي ووضعتها عند أسفل السرير. بعد ترددٍ للحظة، تراجعتُ عن ذلك، وأعدتُ كتابي "الأجرام السماوية" و"الماء الصالح للشرب" إلى مكانهما الآمن تحت وسادتي. لقد نجيا من يومنا سالمين، لكنني لم أشعر برغبة في التجربة. في وقتٍ مبكر من اليوم، أدركتُ أن العملة الرومانية (السسترتيوس) قد اختفت، لكنني لم أُخبر توماس بذلك، ربما على أمل أن أجدها. بحثتُ عنها في أكثر الأماكن وضوحًا: في حقيبتي، وعلى الطاولة في غرفة المعيشة، وعلى المكتب في المكتب، لكن لم أجدها في أي مكان.

أخبرتُ توماس عن السسترتيوس. لم يستطع تذكر ما فعلناه به الليلة الماضية، لكننا بحثنا عنه الآن في كل مكانٍ يُحتمل أن يكون أحدنا قد وضع فيه عملة رومانية. في البداية، تحقق توماس مما إذا كان قد وضعه مع مجموعته في المكتب، لكنه لم يكن هناك، ولم يكن قد وضعه في درج، أو تركه على زاوية رف، أو وضعه على حافة نافذة في غرفة النوم.

كنتُ -وما زلتُ- مقتنعًا بأنّ السسترتيوس قد عاد إلى متجر فيليب موريل، تمامًا كما عادت الكتب إلى رفوفها في تلك الليلة الأولى. فكّرتُ

بالعودة إلى باريس لأتأكد، لكنّني سأبقى حيث أنا الآن. لن أذهب إلى باريس، ولن أدخل غرفة المعيشة لألتقي بتوماس، الذي صعد الدرج إلى المكتب قبل دقائق، ثم عاد إلى غرفة المعيشة بعد ذلك بقليل حاملًا دفتر ملاحظاتٍ سيدوّن فيه بعض التعليقات على الكتاب الذي يقرأه. حلّ المساء. يومٌ آخر من أيام الثامن عشر من نوفمبر يوشك على الانتهاء. لقد جلستُ بجوار النافذة معظم اليوم، في غرفةٍ تُلقي بضوئها على الحديقة المبتلة، ولن أغادر.

لم نعثر على السسترتيوس، بالطبع. بينما كنتُ أفتش خزانة الأدراج في غرفة النوم للمرة الثانية، جلس توماس على سريره محاولًا فهم ما حدث في الثامن عشر من نوفمبر، لكن منطق ذلك اليوم كان غامضًا. اختفت بعض الأشياء، لكن ليس كلها. لم تختفِ حقيبتي وملابسي، ولا الكتب التي اشتريتها في السابع عشر، وحتى الكتابان اللذان اشتريتهما في الثامن عشر، واللذان اختفيا من غرفتي في فندق دو ليسون في المرة الأولى واضطررت لشرائهما مجددًا، بقيا معنا. كانا تحت وسادتي ليلًا وتحت مراقبتي طوال اليوم، وما زالا هناك. أما السسترتيوس، فلم يكن له أثر.

بعد دقيقة، عندما التفتُّ إلى توماس وهو في خضم حديث مطوّل عن تناقضات الزمن وسرد أحداث اليوم، وجدته يبدو مستمتعًا بالموقف، وكأنه، بعد أن أمضى اليوم في استيعاب الفكرة، بدأ ينظر إلى سلوك الزمن الغريب على أنه مزحة دخلت حياتنا. وبحلول الوقت الذي استلقيت فيه بجانبه تحت اللحاف، كان قلقه الصباحي قد زال، ليحل محله هذا المرح المفاجئ، وقبل أن نخلد إلى النوم - من باب الاحتياط، كما قال - ألقى كلمة قصيرة.

خاطب أولاً الكتب تحت وسادتي، ثم الكتب عند أسفل السرير، طالباً منها البقاء قليلاً، ثم احتضنني، وضمّني إليه، وطلب مني أيضاً البقاء حتى اليوم التالي، أياً كان، أو حتى الذي يليه - والأفضل من ذلك كله، البقاء إلى الأبد. بعد ذلك بقليل، غطّ في نوم عميق، وبعد دقائق، لا بد أنني غفوت أنا أيضاً.

إن مجرد التفكير في مثل هذه اللحظات هو ما يدفعني أحيانًا للنهوض والتوجه نحو باب القاعة، لكنني لا أفتحه لأنني أتذكر أولًا أن عليّ تبرير وجودي، وأن عليّ الآن تبرير 122 يومًا، وأن عليّ مجددًا أن أرى القلق في عيني توماس، وأن أضيف بسرعة أنه لا أحد مات أو أصيب، وأن الزمن وحده هو الذي انهار، فأبقى هنا. سيستغرق الأمر طوال الليل حتى تبدأ سخافة الموقف في بثّ البهجة في نفوسنا. وكأن هذه البهجة كامنة في الأعماق، وكأنها يجب أن تطفو أولًا إلى السطح عبر طبقات

من القلق والشك، عبر أسئلة وانعدام الإجابات، كفقاعات غاز محصورة في التربة الصقيعية تحتاج إلى وقت لتذوب.

بدأتُ أعتاد على الفكرة. أنا عالقة في يومٍ واحد من أيام نوفمبر، لكنني في المنزل، وتوماس في غرفة المعيشة، منغمسٌ في الفصل الرابع من رواية "تحقيقات واضحة" لجوسلين ميرون. أشكّ في أنني أفكر فيه الآن، لكن إن كنت كذلك، فسيتخيل أنني في فندق دو ليسون، أو أنني مع فيليب موريل في متجره. لن يتوقع مني الاتصال به هذا المساء، ربما ليس قبل صباح الغد أو ربما لاحقًا، بعد أن أزور نامي شاريه في مكتبة 18 وأكون في القطار عائدةً إلى كليرون. أتوقع أن يجلس توماس يقرأ لبعض الوقت، ويضع كتابه جانبًا بين الحين والآخر ليكتب بضع كلمات في مفكرته، ثم يمزق تلك الورقة ويعيدها إلى المفكرة في نهاية الفصل الرابع. بعد ذلك، أتوقع منه أن يطفئ ضوء غرفة المعيشة، ويتأكد من إغلاق الأبواب، أولًا الباب الأمامي ثم الخلفي، ثم يطفئ ضوء الردهة، ويصعد إلى الطابق العلوي وينام في الغرفة بالطابق العلوي. أتخيل أنني سأطفئ الضوء في هذه الغرفة قريبًا، وأخلد إلى النوم، وأستيقظ غدًا في الثامن عشر من نوفمبر رقم ١٢٣,

١٢٣

في صباح اليوم التالي - في الثامن عشر من نوفمبر، وهو الرابع من نوفمبر - كان توماس أول من استيقظ. شعرت بيده على كتفي، وسمعت نبرة الفرح في صوته ممزوجة بشيء من الحيرة وهو يسألني متى وصلت إلى المنزل وكيف عدت وأنا قد تحدثت إليه في الليلة السابقة من فندقي في باريس. جلست في سريري، وبعد ثوانٍ قليلة تذكرت ما حدث. كرر سؤاله، وللحظة ظننت أنه يقصد المحادثة التي دارت بيننا بعد زيارتي لمتجر فيليب موريل، وأنه يتذكر فجأة الثامن عشر من نوفمبر، لكنه كان يتحدث عن السابع عشر. ما تذكره هو محادثتنا قبل أن أخلد إلى النوم في الفندق ليلة وصولي من بوردو. مرة أخرى، استيقظ توماس لأول مرة على الثامن عشر من نوفمبر، وكل ما حدث بينهما قد مُحي من ذاكرته. اختفى يومه الممطر في كليرون سو بوا. اختفت محادثتنا الهاتفية بعد زيارتي لفيليب موريل. عودتي إلى المنزل في الثامن عشر من نوفمبر قد مُحيت. تلاشت من ذاكرته ذكرى فطورنا في السرير في الثامن عشر من نوفمبر، كما تلاشت أحاديثنا طوال اليوم، ونزهتنا في المدينة، ولحظاتنا الحميمة على سجادة غرفة المعيشة، وبحثنا عن العملة المفقودة، وخطابه للكتب على السرير. كان الثامن عشر من نوفمبر للمرة الرابعة، وكنت أعلم مسبقًا أن هذا اليوم لن يبقى في ذاكرته أيضًا.

أخبرتُ توماس مجدداً بما حدث، ورأيتُ فرحته بعودتي تتحول إلى قلق. حاولتُ مرة أخرى الإجابة على أسئلته، لكنني لم أستطع تقديم أي تفسير منطقي.

على مدى الأيام التالية، كنت أستيقظ كل صباح على نفس الشعور الغامض بالاستقرار الذي استيقظت عليه صباح اليوم التالي لعودتي. في مناسبتين، أيقظني توماس، متفاجئًا بوجودي نائمًا بجانبه، لكنني عادةً ما كنت أستيقظ أولًا. استيقظت تدريجيًا. في البداية، شعرت ببساطة أنني في بيتي، في حالة بين النوم واليقظة، بوعي ضبابي. كأنني أستيقظ على شيء لم يتشكل بعد، وأشعر، لبضع لحظات، أن كل شيء كما هو دائمًا. كصباحات في غرف غريبة عندما تظن أنك استيقظت في غرفتك الخاصة.

تغفو في السرير، حتى تدرك أن الباب في غير مكانه، وأن أغطية السرير غريبة، وأن الغرفة مختلفة. أو كصباحات الطفولة التي تبدو أيامًا عادية تمامًا، ثم تكتشف أنها يوم عيد ميلاد أو يوم عيد الميلاد. أو على العكس: تتمدد، مستعدًا لصباح عادي، لتكتشف فجأة أنك استيقظت على قلق واضطراب لم تشعر بهما طوال الليل.

هكذا تبدأ الأيام: بصباحٍ غامض. ضوءٌ رماديٌّ خافتٌ من النافذة. تغريدُ الطيور، صوتُ المطر. ملمسُ ملاءاتِ الفراشِ على بشرتي، صوتُ الريحِ الخافتِ بين الأشجار، تنهدٌ ناعمٌ في هواءِ الصباح. أتذكرُه كعالمٍ يكاد يخلو من العمق؛ ليس كالحلم، بل كأن جزءًا من وعي المرء قد أُغلِقَ: أنت مستيقظ، مدركٌ للعالم من حولك، أنت البصر والسمع، أشبه بمحطة استماع، لكن لا يُلاحَظ فيها إلا أقرب الأشياء، كل شيء آخر يتلاشى في الخلفية، كأن النهار يحاول القدوم عاريًا، محايدًا، مجردًا من الصفات. إنه مجرد صباح، أبسط صباح ممكن.

يدوم ذلك للحظة. أسبح في ضباب الصباح، أعي ما حولي في الغرفة، أشعر بتوماس يتحرك، نائمًا أو شبه مستيقظ، يدي تمتد، ضوء الفجر، أثاث الغرفة، الباب المؤدي إلى الدرج، شيئًا فشيئًا تتضح التفاصيل، تتدفق الذاكرة، أتذكر ما حدث، أن الزمن قد تلاشى لكن الأيام تستمر في المضي. خمسة أيام، ستة أو سبعة، ثمانية، عشرة أو اثنا عشر، وأدرك أن صباحي قد بدأ وأن اليوم يتحول إلى يوم آخر من أيام 18 نوفمبر.

لا أدري ما الذي يحدث. هل يتوقف الزمن ليلاً، أم يختفي الماضي والمستقبل أثناء النوم ولا يعودان إلا عند الاستيقاظ؟ أم أن الكلمات هي التي تُمحى، فلا يبقى إلا الخطوط العريضة للأشياء؟ ربما اللغة هي التي تتوقف، فيستيقظ المرء أصم أو بكلماتٍ تُعبّر فقط عن أبسط

المفاهيم: الصباح، الآن، هنا، مستيقظ، النور. ربما يستيقظ المرء بلا جمل. أو بجملٍ بسيطة، تتكشف مع استيقاظه. الآن هو الصباح. ها هو يومٌ جديد. أنا مستيقظ.

لا أعرف. لكن كل صباح كان يحدث الشيء نفسه. كنت أستيقظ في السرير بجانب توماس، على ضوء رمادي يتسلل من خلال الستارة، وعلى أغطية السرير، وعلى صوت خافت للمطر والريح، وعلى انطباع ضبابي عن الصباح يتحول تدريجياً إلى يوم آخر من أيام الثامن عشر من نوفمبر.

أيقظت توماس برفق. أمسكت به بقوة في تلك اللحظة لأطول فترة ممكنة، قبل أن تستيقظ ذاكرته ويتذكر أنني كنت في باريس، أو بالأحرى، أنه كان ينبغي أن أكون في باريس، وبدأ يتساءل.

همستُ له بما حدث. شعرتُ بقلقه. كلما نظرتُ إليه، كانت نظراته حادة، لكنني تمكنتُ من تخفيف حدتها قليلاً بنظرة خاطفة وأنا أقترب منه وأهمس. لم يحدث شيء. أو يكاد. كان مجرد خلل في الزمن. لكنني عدتُ، كنا معًا، لم يمت أحد، لم يُصب أحد بأذى، لم تكن هناك مآسٍ، ولا حوادث، ولا كوارث، ولا سيارات إسعاف، ولا جنازات. حتى حروقي كانت تلتئم ببطء.

لم يشك توماس قط في قصتي، ولم يكن بحاجة لذلك. كنت أستطيع أن أخبره متى سيتوقف المطر ومتى سيعاود الهطول، وأن ساعي البريد سيأتي في الساعة 10:41 أثناء هطول رذاذ خفيف، وأن أصف له كيف سيحلق طائر القرقف طويل الذيل بين أغصان شجرة التفاح بعد ذلك بوقت قصير، وأن أتوقع أنه في الساعة 5:14 مساءً، تحت المطر الغزير، سيسرع جارنا مارًا بالسياج أسفل حديقتنا الخلفية، ثم ينعطف يمينًا ويركض على الطريق بين منزلنا ومنزله. من نافذة المكتب، كنا سنراه يفتح بوابته، ويعبر الفناء المرصوف، ويتفادى بركة ماء تشكلت في تجويف عند التقاء أربعة أحجار، ثم يسرع إلى بابه الخلفي ويفتحه بمفتاح كان قد أخرجه من جيبه أثناء مروره تحت المطر.

كانت تلك أيامًا غريبة. استيقظنا صباحًا، وخرجنا في نزهات، ثم جلسنا واحتسينا القهوة في مكان ما في الثامن عشر من نوفمبر. طوال معظم اليوم، كنا على دراية تامة ببعضنا البعض، كعشاق في بداية الحب أو ككائنات قصيرة النظر. جعلنا الأفق يختفي. سعينا وراء هذا الشعور بالدوار. تبددت المسافة بيننا في الضباب. جعلنا الدوار جزءًا من يومنا. خلقنا مساحة مشرقة من حيرة رمادية مشوشة.

لا أعتقد أن الأمر كان بإرادة مني، لكنني تمكنت ببطء وبشكل شبه غير محسوس من إطالة إحساسي بصباح محايد وغير محدد المعالم. ركزت

عليه، وكثفت ذلك الاستيقاظ الرمادي الباهت، ومع كل صباح وجدت أنه من الممكن أن أحمل ذلك الإحساس معي لفترة أطول خلال اليوم. بعد بضعة صباحات فقط، تمكنت من التمسك باللحظة لفترة كافية لتشمل كل شيء في الغرفة من حولي: ملاءات السرير وجسد توماس بجانبي، والجدار خلف السرير وخزانة الملابس على الجانب الآخر من الغرفة، وكرسي عليه ملابس، وضوء الصباح، والصوت الخافت لباب مدخنة يرتجف في الريح. هذه أصوات وأحاسيس مألوفة، وما زال الصباح عادياً، المكان واسع ومفتوح، وأنا مستلقٍ في السرير بينما تتدفق شظايا العالم وتتلاشى: لحن قصير من تغريد الطيور، طائر أسود يتحدى السماء الرمادية أو طائر أبو الحناء يغني في وقفة المطر، ثلاث أو أربع نغمات في البداية، ثم ست أو سبع، ثم ثماني، وكل واحدة منها تتلاشى في ضبابي بمجرد انطلاقها.

لا بد أنها كانت لحظة ضبابية لا شعورية، بدايةً ليومنا. أتذكر صباحات هادئة وساكنة بنور خافت. أتذكر ضبابًا كثيفًا رافقنا حتى ساعات متأخرة من النهار. تجولنا في مشهد ضبابي لم نكن نرى فيه سوى الخطوط العريضة للأشياء. لم يكن هناك داعٍ لمعرفة ما إذا كانت المخلوقات التي رأيناها تنتمي إلى نوع معين أو آخر، أو ما إذا كانت الأشكال التي لمحناها على جانب الطريق أشجارًا أم شجيرات، أو ما إذا كانت المباني التي مررنا بها بيوتًا أم أكواخًا صغيرة.

أو ربما كنا تحت الماء. لقد هبطنا إلى قاع البحر، غواصان يستكشفان محيطهما بحذر، يشيران إلى الأسماك أو حطام السفن أو الآثار المنسية. تواصلنا بالإيماءات والإشارات، واخترنا بعض الأشياء لفحصها عن كثب، نلتقطها ثم نعيدها. كان لاستكشافاتنا غرابة هادئة كنا مترددين في التخلي عنها.

أو ربما كنا بحارة ناجين من غرق سفينة. جرفتنا الأمواج إلى شاطئ مجهول، مندهشين ومذهولين من إنقاذنا غير المتوقع، مذهولين لأننا ما زلنا على قيد الحياة، ولكن دون أي معرفة بما قد ينتظرنا عندما ننطلق لاستكشاف الشاطئ.

أتذكر تلك الأيام الآن على أنها أسعد أيام حياتي. شعرتُ بالحب. شعرتُ به على الأريكة في غرفة المعيشة، وعلى الأرض. شعرتُ به في السرير، وعندما كنا نجلس على مائدة الطعام مساءً. لم يكن في ذلك شيءٌ غير عادي. لم يكن الأمر مختلفًا عما كان عليه قبل الثامن عشر من نوفمبر، بل كان أقوى، ولم يكن علينا فعل أي شيء. كان ذلك وقتًا لم يفلت منا. كان أشبه بالوقت الذي أعقب لقاءنا الأول، لكنه كان أكثر حدة، وربما - أو هكذا يبدو لي الآن - كان يحمل في طياته نبرة يأسٍ خفي، لكننا لم نكن نراه كذلك. كان هناك شعورٌ بشحنة كهربائية تسري في بشرتنا،

وطريقةٌ تنساب بها جملنا بسلاسةٍ أثناء حديثنا. كان هناك شيءٌ ما في الأجواء بيننا، كثافةٌ، وشبكةٌ كثيفةٌ من الروابط. شعرتُ بالفهم. كنتُ أنطق بجملٍ تُسمع، وأسمع الكلمات التي تُقال.

كنا نعيش في زمنين مختلفين. هذا كل ما في الأمر. زمنان فاضا على ضفافهما. في مكان تلتقي فيه الأنهار وتتقارب، أشبه ببلاد ما بين النهرين الزمنية، حيث لا يعد الفرات ودجلة سوى اسمين مختلفين للماء. كنا نعيش حياةً كريمة في بلاد ما بين النهرين.

دخلنا في روتين يومي. كنا نستيقظ صباحًا. شرحتُ وجودي. كان توماس يستمع بقلق، وبدأ يعتاد على الفكرة. كنا نخرج في فترات الراحة بين زخات المطر، أو نتمشى على ضفاف النهر بعد الظهر. أحيانًا، مع اقتراب نهاية اليوم، كان توماس يرى فجأة الجانب المضحك من الموقف، وكنا نتخيل عواقب زمنٍ لا يستطيع التماسك. كنا نستمع إلى صوت الرياح والمطر على زجاج النوافذ، أو نخرج في الليل. في مكتبة شارع "فيو مولان"، كنا نستعير كتبًا عن الأكوان المتوازية والعوالم المتعددة. كنا نقرأ حكايات عن الجيوب والحلقات والمتاهات الزمنية. كنا نشاهد أفلامًا عن السفر عبر الزمن والتحولات الزمنية. كنا نقرأ بصوت عالٍ لبعضنا البعض، ونتأمل ونتخيل، وننتظر أن يُضفي هذا معنىً على الزمن. ثم انغمسنا في تفسيرات أكثر خيالًا: هل كان ذلك بسبب العملة الرومانية "سيسترتيوس"، أم بسبب الحب، أم بسبب الحرق على يدي الذي فتح الباب على زمن آخر؟ هل يمكن أن يكون هناك تفسير طبيعي أم أن هناك قوى مجهولة تعمل هنا؟

لا أدري إن كان بالإمكان القول إننا بحثنا عن تفسير. لقد دارت الأمور في حلقة مفرغة. لم تكن تنقصنا الاقتراحات أو الأفكار أو حتى التخيلات الغريبة. كنا ندور في سحابة من النظريات والملاحظات والتفسيرات.

كان هذا يحدث عادةً في وقت متأخر من بعد الظهر أو في المساء، بعد أن يعتاد توماس على الفكرة، بعد أن نتناول الطعام ونجلس متقابلين على طاولة المطبخ، بعد أن نمارس الحب ونستلقي على أرضية غرفة المعيشة أو في السرير. كان بحثنا يتغير باستمرار، أشبه برقصة تقودنا في أرجاء الغرفة، رقصة بولكا بريئة وعفوية نوعًا ما، رقصة فالس للدهشة، باليه اكتشاف مرح، رقصة نقر محمومة بين الحقائق والملاحظات، رقصة تانغو باحثة يؤديها راقصان يجوبان الغرفة، دون أن يبحثا عن مخرج أو مكان للراحة.

لاحظنا أشياءً كثيرة. سمعنا أغصانًا تصطدم بزجاج النافذة، وأصيصًا بلاستيكيًا يتدحرج مع نسيم المساء، والمطر يشتد ويخف، وعمال

البريد والجيران والأطفال يمرون في الشارع. خلال النهار، كنا نتسوق ونلاحظ أن الأشياء قد تكون موجودة أو لا في صباح اليوم التالي. أحيانًا تختفي خلال الليل. كانت هناك تناقضات، لكن لم يكن هناك ما يستدعي التدقيق. يختفي الخبز أو البسكويت الطازج الذي اشتريناه بين عشية وضحاها، ثم نجده في السوبر ماركت، حيث اشترينا آخر عبوة على الرف في اليوم السابق. تعود الكتب التي استعرناها من المكتبة إلى رفوفها خلال الليل. تختفي الملابس: زوج من الجوارب لم أرتديه أبدًا لأنه لم يكن موجودًا في صباح اليوم التالي. كانت هناك تكرارات وشذوذات. لاحظنا، وتساءلنا، لكن ليس لفترة طويلة، ولا أعتقد أننا كنا نرغب حقًا في إيجاد تفسير. كنا مستعدين لقبول أي نظرية تصف وضعنا بدقة معقولة، ومستعدين للتخلي عنها إذا توصلنا إلى نظرية أخرى.

وجدنا أنماطًا، لكننا لم نتعمق في دراستها. وجدنا تناقضات، وتساءلنا عنها ثم نسيناها. أتذكر هذا كأمر مشترك، لكنها كانت أنماطي الخاصة، وتساؤلاتي، لأنه مع حلول الصباح كان توماس ينسى كل ما اكتشفناه، ويبدأ يومنا من جديد. حققنا اكتشافات بسيطة، ووجدنا تفسيرات سريعة. لم نراكم المعرفة، لأن كل ما اكتشفناه احتفظت به في ذاكرتي بشكل سطحي، وكان من السهل نسيانه في غمرة النسيان المتبادل، ومن السهل تذكره أيضًا عندما يُطرح السؤال مجددًا.

في كثير من الأحيان، كنا نصل ببساطة إلى استنتاج مفاده أنه لا يمكنك معرفة كل شيء، وأنه عليك أن تقبل بعض التغيير في الحياة، وأنه عليك أن تتوقع التناقضات، وهذا ما واجهناه: أنماط وتناقضات، عالمان يحاولان الاندماج.

استمر هذا الوضع لعدة أسابيع. أو لعدة أيام تعادل عدة أسابيع. ربما ثلاثة وستون يومًا. أو أربعة وستون. أو خمسة وستون. لا أدري. لا أتذكر متى بدأ الوضع ينقلب.

كنتُ أحسب الأيام، لكن كل يوم كان مجرد خط في دفتر صغير أحتفظ به في المطبخ. في البداية، كنا نتحدث عن عدد الأيام وعدد الخطوط في دفتري، لكن سرعان ما وضعته في درج على الطاولة الصغيرة في المطبخ. خلال النهار، كنتُ أجد لحظةً أكون فيها وحدي لأفتح الدرج، وأُخرج الدفتر، وأخطّ خطًا، ثم أغلقه وأُعيده إلى الدرج. لم يعد عدد الأيام موضوعًا نتحدث عنه. لم نكن لنسمح للأيام أن تُفرّق بيننا: أبقيتُ المسافة محصورةً في درج المطبخ.

بعد حين، عادت الرؤية تتضح. أصبح التمسك بها أصعب. انقشع الضباب. أو عاد الغواصون إلى السطح. أصبح البحارة الناجون من غرق

السفينة على دراية بالشاطئ. أصبحت الأيام أكثر وضوحًا. ليس في اللحظات الأولى. بدأ صباحي كما كان من قبل. أصبحت أعي الغرفة من حولي، ويومًا يتكشف أمامي؛ ما زلت أستطيع التمسك بشعور صباح رمادي ضبابي لبضع نغمات من تغريد الطيور، أربع أو خمس نغمات، ثم ثلاث نغمات فقط، ربما اثنتين، لا أكثر، ثم تلاشت لحظتي وتذكرت كل شيء، كانت أفكاري تجوب الغرفة بالفعل، انجرفت إلى حافة النافذة، إلى الصباح، إلى الطيور في الشجرة، إلى المنازل والشوارع حيث كان الناس، واحدًا تلو الآخر، يدخلون الثامن عشر من نوفمبر بنمط راسخ، مقتنعين بأنهم يشرعون في هذا اليوم لأول مرة.

اكتسب صباحي عمقًا وأفقًا واضحًا. لم أكن أرغب في أفق، بل كنت أرغب في ضوء صباح رمادي ويوم يبدأ بلا وقت، بلا ذكريات، بلا خطط، لكن ذلك لم يعد ممكنًا. بضع نغمات من طائر في نوفمبر، غرفة محددة المعالم بوضوح، ويوم لا يمكن إيقافه. كان هناك صفاء في الهواء، وبدلًا من إدراك غامض لـ

ملاءات السرير، والغرفة، وضوء الصباح الخافت، كل هذه الأشياء أصبحت الآن عناصر الثامن عشر من نوفمبر، دعائم ذلك اليوم الحادة. توماس، الراقد بجانبي، لم يعد زوجي النائم في صباحٍ غامض، بل زوجي الذي يبتعد يومًا بعد يوم، حبي الذي لم أفقده بعد، والذي كنت على وشك أن أرى نظرة دهشته، لأن هذا لم يكن صباحًا عاديًا، ولم أعد تارا، نصف نائمة، على قيد الحياة بشكلٍ غامض، وسعيدة بهدوء، بل تارا عائدة إلى زمنٍ مُحطّم، ومرة أخرى كان عليّ أن أشرح لتوماس ما حدث. كنت أرى قلقه، فأُسارع لأقول له إنه لا داعي للقلق، وأنني هنا، وأننا معًا، لم يمت أحد، ولم يُصب أحد بأذى. أنا في المنزل، أنا بخير، نحن على قيد الحياة؛ الزمن فقط هو الذي تشتت.

لقد زال ضباب الصباح. برز اليوم بوضوحٍ تام، بألوانه الزاهية وملابسه الكاملة – أحيانًا منذ لحظة استيقاظي، وأحيانًا بعد ثوانٍ معدودة – لكن لم يعد بوسعي فعل أي شيء لتأجيله. أصبح اليوم الثامن عشر من نوفمبر، رقم 68، 69، 70، 71.

في النهاية، أصبح الوضوح طاغيًا. لم تكن هناك أي ظروف مخففة. حاولت إخبار توماس بما حدث، لكن تفسيراتي بدت مبهمة وغير كافية. حاولت أن أقول إنه لم يمت أحد ولم يُصب أحد بأذى. وأن حرقي قد شُفي ولم يتبقَّ سوى ندبة حمراء صغيرة. وأنه لا داعي للقلق. لكن نبرة قلق تسللت إلى صوتي. بدأت أرى الأمور بوضوح أكبر، وبدأت أبحث عن تفسيرات، ولم يعد هناك ضباب أختبئ فيه. شعرتُ بالضعف. شعرتُ بالوحدة.

في ذلك الوقت دخلتُ إلى هنا. كان صباح أحد تلك الصباحات التي استيقظتُ فيها وأنا أعرف كل ما حدث على الفور. استيقظتُ على الغرفة المألوفة، على نفس الضوء الرمادي، على مطر الصباح الخفيف، على العصافير في الخارج، على أصواتها الخريفية ومقاطعها الموسيقية القصيرة، المألوفة لي تمامًا، لكن كل ذلك ظهر أمامي دون غطاء النوم الواقي. لا بد أنه كان اليوم السادس والسبعين، لأنني دوّنتُ خطي اليومي في الدفتر بقلم وجدته على الطاولة هنا، في غرفة الضيوف، في الغرفة المطلة على الحديقة وشجرة التفاح وكومة الحطب.

كانت 76 يومًا مدة طويلة جدًا. كانت المسافة شاسعة جدًا. وقفتُ في المطبخ والدفتر في يدي، وأدركتُ أن أيامًا كثيرة قد انقضت.

بيننا. بحثتُ عن القلم الرصاص الذي عادةً ما يكون في الدرج مع الدفتر، لكنه لم يكن هناك. حدّقتُ في خط الكتابة الطويل في الدفتر، وفجأةً بدا من المستحيل عليّ إيجاد قلم رصاص آخر، وكتابة خط آخر، وإعادة الدفتر إلى الدرج، وإيقاظ توماس وإخباره أنني عدتُ، وأنه لم يُصب أحد بأذى أو يموت، وأنّ بضعة أيام فقط قد فرّقت بيننا. لم أستطع الاستمرار في تكرار نفس السيناريو. انقشع الضباب، وامتدّت المناظر الطبيعية أمامي واضحةً وحادة، ولم نكن نستيقظ على نفس اليوم.

جمعتُ كل آثار وجودي. أحضرتُ كتبي وملابسي من غرفة النوم، ونزلتُ الدرج على أطراف أصابعي. وبأقصى قدر من الهدوء، رتبتُ المطبخ، وأحضرتُ زجاجة بلاستيكية فارغة كانت في حقيبتي منذ وصولي إلى المنزل، وغسلتها، ثم ملأتها ببطء بماء الصنبور. بعد ذلك، جمعتُ كل كتبي ووضعتها في حقيبتي، وأخذتُ دفتر الملاحظات الذي يحوي كل ما كتبته من طاولة المطبخ، وعلقتُ الحقيبة على كتفي. ساد الهدوء أرجاء المنزل بينما تسللتُ بهدوء في الردهة لأحضر معطفي وحذائي، ثم فتحتُ باب غرفة الضيوف، ودخلتُ إليها، وأغلقتُ الباب خلفي.

بقيتُ طريح الفراش لخمسة أيام. لا أدري ما كان يحدث، لكنني أتصوره كجولة طويلة متواصلة من الأسئلة تدور في ذهني، وقد استنفد كل طاقته في التشبث بضبابية الصباح، تلك النشوة الهانئة. أتذكر ما كان يدور في ذهني كنوع من العقلانية الحدسية الجامحة، بلا هدف ولا انقطاع، سباق ذهني محموم عبر التفاصيل والأنماط، مراجعة لا تنتهي للبيانات التقنية، سرد للحقائق، تراكم مكثف للأحداث، وملخص للوقائع من جميع الأيام التي قضيتها في الثامن عشر من نوفمبر.

كل ما فكرنا فيه أنا وتوماس، وكل الأفكار التي تركناها تتلاشى في غياهب النسيان، انهمرت عليّ فجأة، وأغرقتني في حالة من الهذيان العقلاني. الأسئلة التي كنت أتجنبها بدأت تتدفق عليّ دون سابق إنذار، تستحضر ذكريات الأيام التي قضيتها مع توماس.

كنت أعرف مسبقاً تفاصيل اليوم خارج المنزل، بأحواله الجوية وأحداثه. استحضرت من ذاكرتي معلومات عن ذهاب وإياب الناس في الشوارع، وتذكرت حركات الطيور، وصوت الرياح.

في الأشجار، والمطر يخف ويشتدّ، وصوت وعاء نباتات بلاستيكي يتطاير بين الحجارة المرصوفة عند زاوية المنزل.

ثم أُضيفت تفاصيل جديدة. وبينما كانت ذاكرتي تعمل بأقصى سرعة، كان دماغي يجمع أصوات أيام متتالية متطابقة تمامًا: شخص يتحرك في أرجاء المنزل، خطوات على الأرضيات والسلالم، أدراج تُفتح، حفيف أكياس التسوق، يد أو ذراع تلامس جدارًا، تدفق الماء عبر الأنابيب، أبواب تُفتح وتُغلق. كانت مجموعة من الحركات، وتراكمًا للتفاصيل، لأنماط اليوم، وكلها انطوت في تساؤل لا ينقطع، وطحن منطقي، وحمى باردة، ونشاط دماغي حر، مشغول بالتنظيم والترشيد دون أي مساعدة مني، أشبه بمعالجة البيانات، تتم دون أي تدخل بشري. كانت هناك أجزاء من الدماغ تعمل باستمرار - كما لو كانت مشاريع بناء جارية: عملية مؤلمة تقريبًا، تقطع اليوم، وتستخلص المعلومات من الأجزاء المقطوعة، ثم تعيد تجميعها لتشكيل نمط جديد، عالم جديد.

في بعض الأحيان، كنت أشعر بإرهاق شبه كامل يغمرني فجأة ويغرقني مباشرة في نوم عميق أستيقظ منه، على ما يبدو دون أن أحلم، والذي ينتقل بسلاسة إلى جمع ومعالجة المعلومات بشكل متواصل.

لا أعرف ما كان يحدث. حاولتُ تجميع أحداث اليوم، وأعدتُ بناءها. ربما كنتُ أستعد لوقتٍ آخر. ربما كان الأمر أشبه بإعادة برمجة عصبية، أو معايرة للأجهزة العقلية، أو تكوين روابط عصبية جديدة بين خلايا الدماغ، أو إنشاء مستقبلات، أو إنتاج نواقل عصبية، أو ربما إعادة ترتيب لإحساسي بالوقت، أو امتداد للدماغ، أو هدم مبانٍ لم تعد تُستخدم، ماذا أعرف؟ أعرف أنني شعرتُ وكأنني موقع بناء، أو تلة نمل، أو خلية نحل، أو مختبر مليء بالنشاط. أعرف أنني كنتُ أشرب أو آكل بين الحين والآخر، ليس كثيرًا، لكنني وجدتُ كيسين من البسكويت وعلبتين من المشمش في شراب، تركهما جد توماس. لا بد أنني أخذتهما من إحدى خزائن المطبخ ليلًا أو بينما كان توماس خارجًا، لا أتذكر، لكنني أتذكر أنني كنتُ أذهب أحيانًا إلى المطبخ لأملأ زجاجة

بلاستيكية بالماء. أتذكر أيضاً أنني كنت أحياناً أتسلّق من النافذة وأتبوّل خلفها

كوخ الحديقة، ولديّ فكرة أنني كنت أتجول أحيانًا في أرجاء المنزل عندما كان توماس بالخارج، لكن هذه الذاكرة ضبابية لدرجة أنني لا أستطيع الجزم. ما أتذكره جيدًا من تلك الأيام هو ذلك الطحن المتواصل، كما لو أن الأيام التي مررت بها منذ الثامن عشر من نوفمبر تُكثّف الآن، كما لو أن كل المعلومات تُجمع وتُخزن في ذاكرتي. دخلت كل الأيام التي قضيناها معًا. دخلت كل الأيام التي فقدها توماس ليلًا، يومًا بعد يوم، كل الأيام التي حاولت التخلص منها على طول الطريق، لكنها جميعًا، مع ذلك، علقت في ذهني.

انقشع الضباب. ولّت تلك الأيام الغريبة. كنت أعلم أنني لن أستطيع التشبث بضوء الصباح الرمادي الخافت طويلًا، كنت أعلم أنني كنت أحجب الماضي والحاضر، وأنني كنت كشعلة بشرية. ولّت تلك الصباحات الباهتة. ولّى زمن غرقي في قاع البحر، ولّى إلى الأبد. ولّى الضباب الذي كان أعظم نعيم، ولكنه - في نظري الآن - يتطلب من المرء أن يكون في غاية السذاجة، وأن يسكن في متاهات الحماقة، وأن يستسلم لقبضة اللامبالاة الرقيقة.

مكثتُ خمسة أيام على السرير الإضافي هنا. ثم عدتُ. كان اليوم الحادي والثمانين. رأيتُ خمس علاماتٍ بالقلم في دفتري، وأتذكرُ بشكلٍ مبهمٍ وقوفي عند الطاولة، أضعُ علامةً في الدفتر بشكلٍ آليّ تقريبًا. لديّ انطباعٌ بأنني كنتُ أفعلُ هذا كل صباحٍ بعد خروج توماس، لكنني لستُ متأكدًا. جلستُ على المكتب في هذه الغرفة، وأحصيتُ جميع العلامات، وبدلًا من إضافة علامةٍ أخرى، كتبتُ الرقم ٨١ بالقلم. كأنني كنتُ أتوقُ إلى الدقة. كأنني بحاجةٍ إلى عدّ الأيام، يومًا بيوم. كان لا بدّ من ترقيمها، لم أستطع الاكتفاء بالعلامات في دفتر.

في ذلك الصباح، استيقظتُ غارقاً بالفعل في نشاط دماغي المألوف، ولكن بعد ذلك بدأت الكلمات تتدفق إلى ذهني. عبارات مثل "الهذيان العقلاني" و"الطحن المنطقي" انبثقت من الطنين المستمر في رأسي.

لاحقًا، بدأت ألاحظ الغرفة من حولي. أدركت أنني مستلقٍ على السرير وأنني أسمع صوت المطر على النوافذ. ثم شممتُ رائحة خفيفة من العرق والأسنان غير المغسولة والملابس المتسخة. أتذكر أنني نظرت حولي للحظة قبل أن أدرك أنها قادمة من

أنا. أتذكر أيضًا شعوري بالبرد وفكرت في نفسي: ها هي تارا سيلتر ترقد، تشعر بالبرد. "برد الصباح"، فكرت. بعد ذلك بوقت قصير، سمعت توماس على الدرج وقلت لنفسي إنني على الأقل أعرف هذا القدر: لا

يوجد أي تغيير. كنت أعرف متى سيفتح الصنبور، ويملأ الغلاية ويضعها على الموقد.

خرجتُ إلى هناك بعد الظهر، بعد خروج توماس. سمعتُ موسيقى في غرفة المعيشة، وسمعتُه يلتقط الطرود من أرضية المدخل، وسمعتُه يغادر المنزل. كنتُ شخصًا آخر. هدأتْ الاضطرابات التي كانت تعصف برأسي، كنتُ جائعًا وأحتاج إلى حمام. صعدتُ إلى الطابق العلوي، واستحممتُ، ثم نزلتُ إلى المطبخ، وقطعتُ لنفسي شريحة خبز وأكلتُها. في درج الخضار، وجدتُ إجاصةً لا بدّ أنها كانت في الثلاجة منذ أيامي الأولى في الضباب، قطعتُها إلى نصفين، ثم إلى أرباع، وأكلتُ القطع واحدةً تلو الأخرى. ثم جلستُ في غرفة المعيشة وانتظرتُ توماس. كنتُ أعرف يومه. كنتُ أعرف أنه سيعود بمجرد أن يبدأ المطر بالهطول، لكنني لم أكن متأكدًا من الوقت بالضبط.

بعد وقت قصير من بدء هطول المطر بغزارة، رأيت جارنا يمر بجوار السياج، وبعد لحظات ظهر توماس، غارقاً في الماء وبدون مظلة. أسرعت إلى الردهة، وأضأت النور، وفتحت الباب.

حدّق بي بدهشة. التقينا عند المدخل. ساعدته في خلع معطفه المبلل وأخبرته أنني عدت. أحضرت سترة من غرفة النوم، وأعددت كوبًا من الشاي، وأخذته إلى غرفة المعيشة، حيث جلسنا: طوال هذا الوقت كنت أحدثه عن باريس وفيليب موريل وماري، وعن الكتب المفقودة والسيسترتيوس. أخبرته عن أيامنا الغريبة الضبابية. وصفت له انقشاع الضباب والصباحات الصافية ذات الآفاق الواضحة. أخبرته عن الخطوط في دفتر ملاحظاتي وعن فترة وجودي في غرفة الضيوف. أخبرته أنني شخص مختلف. أن شيئًا ما قد حدث لعقلي. أخذته إلى غرفة الضيوف. كانت رائحتي لا تزال عالقة في الهواء هنا. كانت هناك علب بسكويت على الأرض وعلبتان فارغتان من المشمش. قلت إنني بحاجة إلى مساعدته. أريته دفتر الملاحظات الذي يحتوي على خط طويل من الخطوط بالقلم الرصاص، ثم خمسة خطوط مرسومة بقلم حبر، وتحتها: 81. أخبرته أن عليّ أن أفهم معنى الوقت. كان عليّ أن أعرف كيف يعمل الزمن. أخبرته عن الجهد المنطقي المضني، وعن عملية بناء العقلانية، وعن تطور الدماغ، و...

جمع الأصوات، ومعالجة البيانات الذهنية. أخبرته أن عليّ إيجاد الثغرة الزمنية، وأنني بحاجة لمعرفة كيف تسللتُ عبرها وكيف أعود إلى الزمن الطبيعي. قلتُ إنني أعتقد أنه يستطيع المساعدة.

أدركتُ أنه صدّقني. كنتُ مختلفًا. بدا وكأن مسارًا قد رُسم في ذهني، ورُصفت ألواحٌ، وأُزيلت شجيراتٌ، وشُيّد طريق، وكُشط الثلج، وما إلى

ذلك، لكن كان عليّ المضي قدمًا. كان عليّ إيجاد بعض الإجابات. كان عليّ إيجاد تفسير ومخرج. بدأتُ أؤمن أنه لو استطعتُ فقط فهم الآليات، لتمكّنتُ من إعادة اليوم إلى مساره التقدمي المعتاد.

على مدى سبعة وعشرين يومًا، بحثنا في تفاصيل ذلك اليوم. في الصباح، استيقظتُ على وضوح الرؤية، على يومٍ له مقدمة ووسط وأفق بعيد، لكنه واضح. كنتُ مستلقيًا في السرير بجانب توماس، حتى قبل أن أفتح عيني، عرفتُ ما حدث. نهضتُ من السرير ونزلتُ إلى الطابق السفلي لأجمع ملاحظاتي واستنتاجاتي من اليوم السابق. أيقظتُ توماس وشرحتُ له كل شيء. لخصتُ تحقيقاتنا وعرضتُ الاستنتاجات الرئيسية. كان عليه أن يساعدني. لم يكن هناك ضباب لأضيع فيه. أصررتُ على طرح الأسئلة. كيف حدث هذا الضرر؟ هل يمكن تفسير مثل هذا الحدث أم أنه مجرد صدفة، حادث؟ أين كان الخلل في الزمن؟ ماذا فعلتُ في اليوم الذي انهار فيه الزمن؟ هل كان هناك من يُلام؟ هل ارتكب أحدهم خطأً، وإن كان كذلك، فما هو؟

لكنّ السابع عشر من نوفمبر كان يومًا عاديًا. سافرتُ إلى بوردو، واشتريتُ كتبًا، ثمّ ذهبتُ إلى باريس. وكان الثامن عشر من نوفمبر يومًا عاديًا أيضًا. استيقظتُ صباحًا، وتناولتُ فطوري، وقرأتُ جريدة، ورأيتُ قطعة خبز تسقط على الأرض، واشتريتُ بعض الكتب، وأخذتُ اثنين منها في حقيبتي. زرتُ صديقًا، أو ربّما صديقين، وأحرقتُ يدي، وتحدّثتُ عبر الهاتف، ونمتُ وأنا أضع مكعبات الثلج.

لم نتمكن من تحديد الخطأ. لم نتمكن من معرفة سبب انهيار الزمن. لم يكن هناك سبب. لم أجد سببًا، ولم يجد توماس سببًا. استطعنا إيجاد أنماط، واستطعنا إيجاد تناقضات. كان توماس هو النمط، وكنتُ أنا الاضطراب.

كان واضحًا منذ اليوم الأول أن جسدي يتبعني. التصقت الحروق من متجر فيليب بيدي، وبقيت معي كجرح صغير متورم ومؤلم، ينزف، وشكّل قشرة سقطت في النهاية، تاركةً ندبة حمراء تقلصت تدريجيًا يومًا بعد يوم. لم أستيقظ في الثامن عشر من نوفمبر ويدي سليمة. لقد فعل الجرح ما هو متوقع من حرق كهذا، إذ تحرك مع مرور الوقت وتغير قليلًا كل يوم. أثر الزمن على بشرتي، والآن، عندما أنظر في مرآة الحمام، لفت انتباهي شعري أيضًا. لقد أصبح أطول. لم ألاحظ ذلك من قبل، لكنني الآن أستطيع أن أرى أن شعري قد نما، ليس كثيرًا، لكن بما يكفي ليؤكد لي الأمر. بدا وجهي في المرآة كما هو، وإذا كانت هناك أي تغييرات، فهي طفيفة لدرجة أنها غير محسوسة، لكن شعري قد نما مع مرور الأيام.

لم يكن الأمر مفاجئًا: يومًا بعد يوم، والتأم الحرق، ونما الشعر، وسار جسدي على نفس المنوال، كما لو لم يحدث شيء. طالت أظافري، ولديّ ذكرى مبهمة عن وقوفي في الحمام ومقص الأظافر في يدي، لكن ذكرياتي عن تلك الأيام الأولى الضبابية كانت باهتة وغير واضحة. الآن، مع ذلك، أصبح الأمر واضحًا، لذا قصصت أظافري، أو بالأحرى، قصصتها مرة أخرى، ببطء، فوق حوض الحمام، لأنها طالت، كما لو أن الزمن موجود وكنت أقصّ أجزاءً صغيرة منه في الحوض، ثم فتحت الصنبور وغسلتها في البالوعة.

لكن توماس كان هو نفسه. لم يطرأ عليه أي تغيير. كانت أيامنا معًا مختلفة، لكن لم يرسخ أي منها في ذهنه أو جسده. تلاشت بين ليلة وضحاها، مرت به دون أن تترك أثرًا، وفي كل صباح كان يستيقظ كما كان من قبل. كنا نعيش في زمنين مختلفين، وأجسادنا تعيش في زمنين مختلفين. ليس فقط ذكرياتنا، بل أجسادنا أيضًا.

كانت الأمور من حولنا أقل قابلية للتنبؤ. بقيت الكتب التي اشتريتها من مزاد بوردو في السابع عشر من نوفمبر على الطاولة في غرفتي بالفندق، تمامًا حيث تركتها، لكن كتابي "تاريخ المياه الصالحة للشرب" و"الأجسام السماوية" لثورنتون، اللذين اشتريتهما في الثامن عشر من الشهر نفسه، بقيا لغزًا. كان من الصعب فهم سبب عودتهما في المقام الأول إلى مكتبات الكتب القديمة التي اشتريتهما منها، ولماذا بقيا معي في اليوم التالي فقط، آمنين تحت وسادتي، و...

لماذا، بعد عدة أيام، ظلوا في المكان الذي تركتهم فيه دون أي مشكلة. كنت أحملهم معي أينما ذهبت، خوفًا من اختفائهم، لكن سرعان ما أصبحوا يجلسون على الطاولة في غرفة المعيشة كما لو كانوا جزءًا منها، كما لو أنهم دُرِّبوا على البقاء في مكانهم.

كانت التناقضات هي ما حيّرنا. فقد عادت أشياء كثيرة إلى أماكنها الأصلية. عادت المدفأة وأسطوانة الغاز الزرقاء إلى الغرفة الخلفية في متجر فيليب موريل. حتى الغبار عاد إلى مكانه. اختفت العملة الرومانية (السسترتيوس). بحثتُ عنها، وأنا متأكد من أنها الآن في علبتها على المنضدة في متجر فيليب موريل. ولكن إذا كانت العملة قد عادت إلى مكانها، فلماذا لم تعد حقيبتي وملابسي وكل الأشياء الأخرى التي أخذتها إلى باريس إلى غرفة الفندق، حيث كانت في الثامن عشر من نوفمبر؟ لقد بقيت معي في المنزل، وكل صباح كانت في نفس المكان الذي تركتها فيه في اليوم السابق. في أول مساء لي في المنزل، كانت حقيبتي على أرضية غرفة المعيشة، ثم في زاوية غرفة النوم، والآن هي هنا بجانبي، متكئة على الحائط، والكتب على الطاولة

الصغيرة بجانب السرير. وكأنني، وسط كل هذا الغموض، أستطيع أن أحملهم معي، وأجذبهم إلى زمني، وأجعلهم يبقون هناك.

لم نتمكن من استشفاف نمط واضح، وهذا ما أزعجني. كنت أرغب في إيجاد نمط وكسره، لكننا اكتشفنا بدلاً من ذلك الكثير من الأمور المجهولة التي حالت دون فهمنا لآليات العمل اليومية. كانت هناك مناطق رمادية وأسئلة بلا إجابات.

من البديهي أنني كنت أضيف كل يوم إلى مجموعة أيام الثامن عشر من نوفمبر التي مررنا بها، وكنت أتذكرها جميعًا، ومن البديهي أيضًا أن الجميع قد نسوها بحلول صباح اليوم التالي. لم أعد أتذكر الأيام الفردية بوضوح تام، فهي ضبابية ومتداخلة في ذاكرتي، لكنها لم تختفِ.

أتذكر أننا تركنا آثارًا. تأثرت أشياء. استهلكنا أشياء. في البداية، واجهنا صعوبة في العثور على القهوة التي نشتريها عادةً. كانت نفدت، فاشترينا نوعًا آخر، لكننا كنا نحن من شرب القهوة من الرف في السوبر ماركت الصغير في شارع كليمنتين جيرو. وبالمثل،

كنا نحن من أفرغنا رف الشوكولاتة بنكهة البرتقال. لاحظنا أن الرف كان فارغًا، وأتذكر أنني استغربت ذلك، لكننا اشترينا أنواعًا أخرى من الشوكولاتة بدلًا منها، اشترينا الشوكولاتة الداكنة النقية، واشترينا الشوكولاتة بنكهة النعناع أو الكراميل.

أحيانًا تعود الأمور إلى نقطة البداية. اشترينا آخر علبة زيتون من رفوف السوبر ماركت، ووضعناها في خزانة المطبخ، وفي اليوم التالي اختفت من المنزل، لكنها عادت لتظهر في المتجر. أظن أننا اشتريناها مرة أخرى، وفتحناها، وتناولنا بعض الزيتون مع الغداء، وأظن أن العلبة نصف الفارغة كانت لا تزال في الثلاجة في اليوم التالي، لكنني لست متأكدًا، لأننا لم نكن نتفقدها خلال تلك الأيام الضبابية.

لم نتحقق من حسابنا المصرفي، الذي تبين الآن أنه يعود إلى نقطة الصفر كل يوم. كان الرصيد ثابتًا كل صباح، ورغم ظهور بعض مشترياتنا في الحساب مساءً، إلا أنها اختفت في صباح اليوم التالي. في الصباح الأول، لاحظنا أيضًا عدم وجود أي أثر لمكالماتنا على هاتف توماس. تذكرت أنني كنت أعاني من مشاكل في هاتفي المحمول في القطار المتجه إلى كليرون، وسرعان ما توقف عن العمل تمامًا، لكنني لم أكن بحاجة إليه، لذا لم نُعر الأمر اهتمامًا كبيرًا. كانت لدينا أمور أخرى تشغلنا. كانت الصباحات ضبابية والأيام ممطرة، وكانت لدينا أمور أهم، وعندما ظهرت تناقضات اليوم في محادثاتنا، كنا نغير الموضوع بسرعة.

لكنني لم أعد أرغب في تغيير الموضوع. أردتُ أن أعرف. أردتُ إجابات. تردد توماس، لكنني أصررتُ. اشترينا أشياءً وتركناها في المطبخ. فتحناها أو تركناها مغلقة. راقبنا ودونّا ملاحظات. عادةً، كانت الأشياء التي لم نفتحها تختفي خلال الليل وتعود إلى مكان شرائها. كنا نأخذ الأشياء معنا إلى غرفة النوم ليلاً، اشتريتُ مرطبان زيتون ووضعته على حافة النافذة، ووضعتُ فرشاة أسنان، مغلقة في علبتها، تحت وسادتي. في صباح اليوم التالي، كانت فرشاة الأسنان لا تزال هناك، مع علبتها، لكن مرطبان الزيتون اختفى، وكذلك علبة شاي كان توماس قد وضعها في خزانة المطبخ.

كان واضحًا أن اليوم يعود دائمًا إلى نقطة بدايته، لكن ثمة اختلافات أيضًا. لم يكن الأمر آليًا، بل كان أعمق من ذلك. كان اليوم نفسه يتكرر، لكنه لم يكن ثابتًا لا يتغير. تذكرتُ. نسي توماس. تحركتُ عبر الزمن. بقي توماس ساكنًا. اتبعت الأشياء أنماطًا مختلفة. لم يكن الأمر بسيطًا - بدا الأمر كما لو أن الأشياء نفسها كانت في شك، كما لو أنها ترددت، كما لو أنها تذبذبت بين الاحتمالات المختلفة التي يقدمها الزمن، متأرجحة على الخط الفاصل بين الزمن الذي مضى والزمن الذي يعود إلى الوراء.

بحثنا عن اللحظة التي يعود فيها اليوم إلى الوراء، لكن لم نجد لحظة محددة. لم يحدث ذلك عند منتصف الليل. ربما حدث في الساعات الأولى من الصباح، لكننا لم نتمكن من تحديدها بدقة: تلك اللحظة السحرية التي يعود فيها كل شيء إلى ما كان عليه. لم يكن ذلك عند منتصف الليل، ولا عند الثانية وعشر دقائق، ولا عند الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة صباحًا. لم يكن هناك دقة، ولم تكن هناك قواعد.

كنتُ أوقظ توماس كل صباح وأشرح له ما حدث. أخبرته أنه يجب أن يساعدني، وأنني انتقلتُ إلى زمن آخر. ربما يكون دماغي قد تغير، قلتُ. كنتُ بحاجة إلى المساعدة، لم أستطع استيعاب الأمر وحدي. كان علينا إيجاد تفسير، وكان عليه أن يفكر أيضًا.

في إحدى الليالي الأولى بعد خروجي من هذه الغرفة، سهرنا طوال الليل، وتمكن توماس من البقاء معي حتى صباح اليوم التالي. عند منتصف الليل، لم يحدث شيء. بقي توماس معي. تذكر يومنا، وتذكر أنها كانت الليلة التي تلي الثامن عشر من نوفمبر، وليست الليلة التي تسبقه.

حلت الساعة الواحدة ولم يحدث شيء. حلت الثانية ولم يحدث شيء. بحلول الثالثة بدأ التعب يتسلل إلينا، لكننا كنا قد وعدنا بعضنا بالبقاء مستيقظين. شربنا القهوة ومارسنا الحب. ذهبنا إلى المطبخ وأعددنا

شيئًا لنأكله. قرأنا بصوت عالٍ لبعضنا البعض واستحممنا معًا. إذا انتقلنا من غرفة إلى أخرى، فعلنا ذلك معًا. تحدثنا مع بعضنا البعض ونحن ننزل الدرج، وتشابكت أيدينا ونحن نصعد. لم يغفل أي منا عن الآخر. بقينا مركزين، وتحركنا بتناغم، وفعلنا كل شيء كجسد واحد. كنا توأمين سياميين، أو فريقًا من الخيول، أو حطابين ينشران شجرة.

جذع الشجرة. أردنا أن ندخل معًا إلى الثامن عشر من نوفمبر القادم، وأردنا أن نودع معًا الثامن عشر من نوفمبر. كان كل انتباهي مُنصبًا على توماس، ولم يكن لديه أي فرصة لينسى أنني كنت معه في المنزل.

بعد الخامسة بقليل، لا بد أنه فقد تركيزه للحظة، أو ربما لم أكن منتبهة، لأنه فجأة ظن أنه كان نائمًا. كنا مستلقيين على أرضية غرفة المعيشة، على السجادة السوداء والبيضاء. تقلب للحظة بينما كنت ما زلت أربت على ظهره، وفجأة انتفض، وارتجف جسده كما يحدث أحيانًا عند بداية النوم، لكنني لا أعتقد أنه كان نائمًا، لأنه كان في منتصف جملة وأنهى جملته وهو يتقلب. نظر إليّ، وبدا عليه الارتباك، كأنه شخص يمشي أثناء نومه وقد أيقظه أحدهم فجأة. سألني عن الوقت واليوم، وماذا كنا نشرب، لأنه لم يكن يشعر بحالة جيدة. بعد ذلك بوقت قصير، سألني متى عدت، لأنه نسي عودتي إلى المنزل. هل عدت أبكر من المتوقع، هل وصلت ليلًا، وكيف كانت رحلتي؟

لم يبقَ أثرٌ للذكريات. لا حمام ولا قهوة في منتصف الليل، ولا أحاديث ناعسة ولا وجبات ليلية يمكن استحضارها من ذاكرته. لم يكن هناك توأمان، ولا فريق خيول ولا حطابون. كانت هناك مسافة بيننا. كان هناك ثقب في الزمن، لكن لم يكن هناك سبيل لمعرفة كيف حدث ذلك. لحظة غفلة، وفقد توماس ذكرى الثامن عشر من نوفمبر. مُحيت ذاكرته من جديد، ليس بسبب نوم ليلة طويلة، ولم يكن هناك تلاشٍ تدريجي. كان الأمر كما لو أن ذكرى الثامن عشر من نوفمبر قد سقطت عبر شق في الليل، هوة انفتحت فجأة. لكننا لم نتمكن من رؤية كيف حدث ذلك، ولم نتمكن من تحديد الخلل الزمني، ولم نتمكن من إيجاد تفسير.

وكررت له القصة كاملة. شرحت له أن الزمن قد انهار، وأننا كنا نحقق في المشكلة من الداخل، وأننا فحصناها بتفصيل كبير، وأنه لم يعد بإمكاننا الاختباء في يوم ضبابي، وأنه كان عليه مساعدتي، وأنه لم يكن هناك قتلى أو جرحى، بل مجرد زمن مليء بالألغاز والتناقضات، وآلية لا يمكن التنبؤ بها، ومعادلة ضبابية مليئة بالمجهولات.

غفونا في غرفة المعيشة واستيقظنا متأخرين. استيقظ توماس أولاً، وتذكر كل ما أخبرته به في الساعات الأولى من الصباح، لكن يومنا معاً،

ومساءنا، وتحقيقاتنا الليلية، كل ذلك تبدد. لم يتذكر سوى ما أخبرته به: أن الزمن قد انهار، وأنه عليه مساعدتي، وكان يفكر في الأمر بالفعل عندما استيقظت.

قضينا فترة ما بعد الظهر معًا. خرجنا للتسوق، ثم عدنا إلى المنزل، وناقشنا تفاصيل الوقت، وأصررت على المحاولة مرة أخرى لإيجاد الخلل في الوقت.

في تلك الليلة نفسها، سهرنا مجدداً. وقد استعادنا تركيزنا بعد نومنا الطويل في ذلك اليوم، وعادت إلينا يقظة ذهننا. دوّنا ملاحظاتنا، وركزنا على أدق التفاصيل. في وقت متأخر من الليل، قلينا البيض وجلسنا متقابلين على طاولة المطبخ. علّقنا على كل تفاصيل ما يحدث، لنضمن أننا نركز على الشيء نفسه. أمسكتُ المقلاة بيد واحدة، وأبقيتُ عينيّ مثبتتين على توماس بينما كان يصب الزيت في المقلاة ويخرج البيض من الثلاجة. كسر البيض ووضعه في المقلاة، بيضة تلو الأخرى، بينما كنتُ أراقب يديه. لاحظنا قطعة من قشر البيض تطفو في بياض البيض الشفاف، والتي انتشلتها بعناية؛ والفقاعات الصغيرة في الزيت حول حافة البيضة المقلية؛ والغشاء اللامع الذي يغطي الصفار، وتوزيع الحرارة، والبياض والشفافية، واللحظة التي يصل فيها البياض إلى حافة الصفار، ورشة الفلفل والملح. تحدثنا عن دهشة بيض الطفولة ذي الصفارين: كنتَ هناك، في المطبخ مع والدتك أو جدك، تكسر بيضة، وإذا كانت كبيرة الحجم، فغالبًا ما تجد صفارين في الوعاء. تحدثنا عن تربية الدجاج، فحديقتنا واسعة بما يكفي، وهناك مساحة كافية لبناء قن دجاج في أسفل حديقة الخضراوات. أخرجنا الأطباق وأدوات المائدة، وتحدثنا أثناء ذلك عن صوت الأطباق والفضيات، صوت الخزف والمعدن. رفعتُ المقلاة عن النار بينما فرش توماس مفرش الطاولة، ووضعتُ المقلاة التي عليها البيض المقلي على الطاولة، وجلسنا متقابلين وتناولنا الطعام.

جمعنا التفاصيل. بقينا متيقظين. أبقينا أعيننا مثبتة على بعضنا البعض. على الطاولة. على المقلاة الفارغة بيننا. لعشر دقائق أو أكثر، جلسنا هناك على الطاولة. تحدثنا عن الأشياء من حولنا.

تكهّنّا إن كانت الأشياء تختفي على فترات متقطعة أم دفعة واحدة. اعتقد توماس أن هناك أشياء في غرف أخرى من المنزل قد عادت إلى أماكنها. تحدثنا عن الذهاب للتحقق لكننا لم ننهض. تحدثنا عن الكاميرات التي يمكنها تسجيل التغييرات. تحدثنا عن الحب. عن إمكانية أن يُحدث تغييرًا. عن إمكانية أن يُدخلنا الحب أو يُخرجنا منه.

ثم فجأة، اختفت المقلاة. تجمدتُ للحظة، ونظرتُ حولي في المطبخ، لكن المقلاة لم تكن في أي مكان. نهضتُ، وبينما كنتُ أفعل ذلك، سمعتُ توماس يصرخ. أراد أن يعرف ما حدث. كان قلقًا. لم يكن نعسًا أو متعبًا. كان قلقًا فحسب. لم يستطع تذكر ما كان يفعله في المطبخ. كان قد ذهب إلى الفراش ليلة السابع عشر، بعد ساعات فقط من حديثنا عبر الهاتف. والآن ها هو ذا في المطبخ. كان من المفترض أن أكون في باريس. لكن ها أنا ذا، أبحث عن مقلاة.

نسيتُ أمر المقلاة وجلستُ مجدداً قبالة توماس. شرحتُ له ما حدث، ورأيتُ القلق يتملكه وأنا أروي له قصةً طويلةً من يوم ١٨ نوفمبر إلى البيض المقلي الذي تناولناه للتو. لكنه لم يشعر وكأنه تناول بيضةً مقليةً مؤخراً، بل كان يشعر بجوعٍ خفيف. أريته علبة البيض في الثلاجة، التي لا تحتوي على ست بيضات، بل أربع. أريته إيصالاً مؤرخاً في ١٨ نوفمبر، يُفصّل شراء ست بيضات، وأريته التاريخ. لكن لم تكن هناك قشور بيض في سلة المهملات. اختفت قشور البيض، لكن موقد الحديد الزهر الذي قلى عليه البيض كان لا يزال دافئاً قليلاً، وإيصال البقالة، الذي كان في حقيبتي، لم يختفِ. كانت هناك تناقضات في التوقيت، وكان من المستحيل استشفاف نمطٍ منطقي.

لأول مرة شعرتُ بالخوف. لم يكن الأمر مجرد حيرة وغرابة وشيء من الشر، بل كان مخيفًا، لا معنى له، ولا سحري بأي شكل من الأشكال. لقد انقشع الضباب تمامًا. لم يكن هذا هو شعور القلق الذي انتابني لحظة سقوط قطعة الخبز في الفندق، ولا هو شعور وجود منطقة رمادية بيننا. لم نكن متجولين في مناظر طبيعية ضبابية، ولم نكن غواصين أو بحارة ناجين من غرق سفينة. لم نكن توأمين أو فريقًا من الخيول، ولم نكن حطابين أو بيضتين في آن واحد. لو كنا في بلاد ما بين النهرين، لكانت الأنهار قد اكتسبت أسماءً.

عادت المياه إلى مجراها الطبيعي. ستكون السماء صافية، والشمس ساطعة، والأنهار جافة، وتشكيلات القوات واضحة، وظلالها شامخة تجوب الضفاف، ويُسمع صوت ارتطام السيوف. كنا نعيش في زمنين مختلفين، ولا سبيل لإخفاء هذا الاختلاف. منطقتان متجاورتان، بينهما نزاعات حدودية ومعاملات غامضة. كنا عاشقين في ساحة معركة. لم يتذكر توماس أي شيء عن أيامنا معًا، لم نستطع خلق أيام ضبابية، أو فيضانات، أو صباحات ضبابية، لم نجد سبيلًا للمضي قدمًا معًا، لم نكن متشابهين أو ضبابيين أو متوازيين بأي شكل من الأشكال. لم أجد أي وضوح أو أنماط، ولا مخرجًا.

حاولنا عبثًا مرة أخرى تحديد العطل في الوقت المناسب لفهمه، وذهبنا إلى الفراش مرة أخرى، وتذكر توماس حديثنا في الصباح الباكر

فقط. تذكر حيرته في المطبخ، وتذكر روايتي للأحداث، وشروحاتي المطولة، ووصفي المفصل لتحقيقاتنا، لكن ذكرياته عن أمسيتنا وليلتنا قد مُحيت مرة أخرى، مُحيت تمامًا، وكأنها تسللت عبر ظلمة الليل.

كانت الأيام القليلة التالية متشابهة. استيقظتُ فجأةً، متذكراً كل ما حدث. جلستُ في سريري ونظرتُ إلى توماس وهو نائم بسلام بجانبي. نهضتُ ونزلتُ إلى غرفة المعيشة. وضعتُ خططاً لليوم. جمعتُ ملاحظاتي من اليوم السابق وقارنتها بملاحظات الأيام الأخرى. رسمتُ مخططات وجداول. أنشأتُ رسوماً بيانية وقوائم. ألصقتُ ملاحظات على جدار غرفة المعيشة وظللتُ مشاكل اليوم باللون الأحمر أو الأخضر.

ثم أيقظتُ توماس. أخبرته بما حدث. شعرتُ بقلقه. تردد. أصررتُ، وبدأنا التحقيق في أحداث اليوم. خلال الصباح، عرضتُ عليه أهم الملاحظات والنتائج التي توصلنا إليها في تحقيقاتنا السابقة. أريته رسومات توضيحية لأنماط الزمن وجداول تُلخص أحداث اليوم. ناقشنا خلال النهار التفسيرات المحتملة، ورسمنا مخططات بيانية، ووضعنا أنظمة، وأنشأنا أعمدة وكتبنا ملخصات، ولكن في صباح اليوم التالي، عندما استيقظ توماس على يومه الثامن عشر من نوفمبر، كان قد نسي كل شيء، واضطررتُ مرة أخرى لإخباره بما حدث وإلى أي مدى وصلنا في تحقيقاتنا.

تحوّلت غرفة المعيشة إلى غرفة تحكّم. شكّل الجدار خلفيةً للملاحظات والرسوم البيانية. وأصبحت السجادة ذات اللونين الأبيض والأسود مكانًا للاجتماعات الموجزة ومراجعة الأحداث. أما الكراسي بذراعين بجوار النافذة، فكانت بمثابة غرفة استراحة للموظفين، حيث كنا نأخذ فترات راحة قصيرة من أعمالنا. خلال النهار، كنا ندون الملاحظات والحقائق، وفي المساء كنا نراجع مداولات اليوم. كنا نحدد التفاصيل والاختلافات، ونضع القواعد والاستثناءات، ونضع الخطوط تحتها ونشطب ما لا يُناسبها. لكن تحقيقاتنا لم تُثمر شيئًا. أو بالأحرى: أثمرت الكثير، كمًّا هائلًا من الملاحظات، وتفاصيل لم تُفسّر شيئًا، وتفسيرات لم تكن مُقنعة.

كنا نعيش في زمنين مختلفين، هذه حقيقة. في بداية اليوم، كنتُ الوحيد الذي يعلم ذلك، وهذه حقيقة أخرى. لم يفهم توماس ما أطلب منه المشاركة فيه إلا بعد التقرير الصباحي، وبعد جلسة إحاطة قصيرة على الإفطار، وبعد مراجعة شاملة للقوائم والرسوم البيانية في غرفة المعيشة. كانت حقيقة أخرى أن الحدود غير ثابتة، وأنه لا توجد نقطة محددة يحدث عندها التحول. يمكننا أن نمضي بعض الوقت معًا في الليل، ولكن عاجلاً أم آجلاً، يختل ترابط الزمن. كانت حقيقة أن أشياء

العالم تبقى معي أحيانًا، وتعود أحيانًا أخرى إلى حيث أتت. بدا سلوك الأشياء غير متوقع. كان من المفيد إبقاؤها قريبة مني جسديًا، ولكن كان هناك شيء غير متوقع في آلية عمل الزمن.

ركزنا. وضعنا نظريات وأطرًا قارناها بأحداث الثامن عشر من نوفمبر. ناقشنا تصورات الواقع والاضطرابات العقلية، وتساءلنا عما إذا كنتُ أُولد سلاسل من التجارب الخيالية، أو ما إذا كان الجميع قد أصيبوا بنوع من فقدان الذاكرة، أو ما إذا كنا قد دخلنا في موجة من التناقض النفسي. طرحنا نظريات وناقشنا حججًا مضادة. قرأنا عن وجهات النظر المتوازية للزمن والقياس الزمني المتغير، واكتشفنا أوصافًا للكسور في الزمن والتكرار الزمني السام. استكشفنا نظريات حول الأكوان المتوازية والعوالم المتعددة والهياكل الزمنية النسبية. وجدنا قصصًا عن مورفولوجيا الذاكرة وحالات نادرة من اعتلال الذاكرة الزمني. ناقشنا نظريات التكرار وعيوب الذاكرة. درسنا العقل

العمليات، وأشياء العالم، والتسلسلات الزمنية. لقد جمعنا النظريات والتفسيرات.

في الحقيقة، لم تكن لدينا ندرة في التفسيرات، بل كانت لدينا وفرة منها، لكننا كنا نبحث عن تفسيرات تصمد أمام التدقيق النقدي، وفي الوقت نفسه تجسد جميع ملاحظاتنا الكثيرة، تلك التي لم نتمكن من العثور عليها. وصلت جميع مسارات بحثنا إلى طريق مسدود، فقد استكشفنا كل خيط بدقة، وعدنا خاليي الوفاض في كل مرة. كانت هناك عيوب وانعدام للترابط، وحقائق لا تتوافق، وتناقضات ومفارقات. انهار كل نظام بمجرد أن حاولنا تجميع بياناتنا معًا لتشكيل صورة متكاملة. لم يكن هناك اتساق، ولم نتمكن من جعل حقائق اليوم تتوافق مع بعض نظرياتنا، ولم نتمكن من بناء أنظمة متماسكة أو إيجاد أي نمط، واضطررنا إلى رفض جميع تفسيراتنا المفصلة واحدة تلو الأخرى. في كل مرة نصل فيها إلى طريق مسدود، كان علينا العودة إلى الحقائق: كان توماس خاضعًا لقوانين النسيان، وكنتُ أُراكم أيامًا كثيرة في ذاكرتي. كان توماس عالقًا في الأبدية، وكنتُ أسير ببطء ولكن بثبات نحو قبري.

مع مرور كل يوم، كان أملي في عودة الأمور إلى طبيعتها يتلاشى، ورغم أن توماس كان يعتقد أحيانًا في الصباح وحتى الظهيرة أن الضرر عابر، إلا أنه بحلول المساء، وبعد يوم طويل من التفكير، كان هو الآخر يفقد الأمل في أي عودة إلى الوضع الطبيعي. لم يبقَ الكثير من آثار أيامنا الضبابية، ولم يمر يوم الثامن عشر من نوفمبر بسلاسة، وكادت النكات عن عدم القدرة على التنبؤ بالوقت أن تتلاشى، كما تلاشت تلك الساعات الأولى التي كنا نستلقي فيها ونستمع إلى الليل، وكنتُ أُعلق

باستمرار على كل الأصوات التي يصدرها، بينما كان توماس مستلقيًا هناك يضحك في الظلام على قدرتي على توقع الترتيب الدقيق لسلسلة من الأصوات الليلية.

انتهى المرح الآن، ولم يتبقَّ سوى التحقيقات العبثية التي كانت تملأ يومنا: محاولاتنا اليائسة لفهم سرّ الزمن؛ الأسئلة التي لا تُحصى والتي اضطررنا للتخلي عن الإجابة عنها مرارًا وتكرارًا، وعادةً - غالبًا عندما نكون في المطبخ نُعدّ العشاء - كنا نتخلى عن تفسيراتنا ونتجه إلى سؤال مصيرنا. هل سنتمكن من البقاء معًا؟ هل سأبقى أنا؟

هل تستطيع مواجهة توماس كل صباح وإخباره عن المزيد والمزيد من الأيام، والتفسيرات الجديدة، وانهيار بيوت من ورق، ونهايات مسدودة، وممرات ضيقة؟

ومع ذلك، وسط كل هذا، أتذكر ومضات أمل مفاجئة، وإشارات تغيير طفيفة، وفكرة أننا سنستيقظ يوماً ما على التاسع عشر من نوفمبر، أو أننا سننتقل فجأة إلى يوم من أيام يناير أو فبراير. لا بد أن يعود الزمن عاجلاً أم آجلاً إلى مساره التقدمي الأبدي، كما قال توماس في الأمسية الأولى، وأحياناً، فجأة، كان أحدنا يردد كلماته، لا بسخرية أو مرارة، ولا بحزن أو خيبة أمل في أصواتنا، بل بأمل، أمل عادي تماماً يسهل تمييزه. أحياناً كنا نصادف ضباباً كثيفاً: لحظات تُذكّرنا بأيامنا الأولى، وأحياناً كنا نشعر أننا فهمنا هذه المرة، وأننا قادرون على الوصول إلى جوهر المشكلة وأننا قريبون من إيجاد حل. لكن في أعماقي كنت أعلم أننا عالقون في طريق مسدود. لم يكن هناك سبيل للعودة إلى تلك الأيام الضبابية، ولا تفسيرات يمكن العثور عليها، مهما دوّنا من ملاحظات أو ابتكرنا من أنظمة.

مكثتُ مع توماس سبعة وعشرين يومًا. ثم أدركتُ أن عليّ التحقيق في الأمر بنفسي. ولأول مرة في حياتنا معًا، كان عليّ وضع خططي بمفردي. لم أكن أعرف بعد ما يجب فعله، لكنني كنتُ أعلم أنني لا أستطيع الاستمرار، صباحًا بعد صباح، في سرد سلسلة متصاعدة من الأحداث المختلفة في اليوم نفسه. لم يكن بوسعنا أن نتقاسم يوم الثامن عشر من نوفمبر. كان هذا يومًا عليّ أن أتحمله وحدي.

في ذلك المساء نفسه، بينما كان توماس ينظف أسنانه، جهزت حقيبتي. وبينما كان يخلع ملابسه، فككت غرفة التحكم، وجمعت طاولاتنا وملاحظاتنا في كومة وضعتها في صندوق كرتوني بني اللون، وبينما كان في الحمام، حملت حقيبتي وصندوق الأوراق بسرعة إلى هنا. رتبت المكان، حتى أصبح المطبخ كما كان عليه عندما استيقظ توماس في أول يوم من أيام الثامن عشر من نوفمبر. قطفت تفاحتين

من الشجرة في الحديقة ووضعتهما في وعاء على طاولة المطبخ. سكبت نصف كمية الشاي السائب من الكيس الموجود في خزانة المطبخ في علبة فارغة أخفيتها خلف بعض أكياس الدقيق، وأفرغت الثلاجة من مشترياتنا من يوم الثامن عشر من نوفمبر.

في صباح اليوم التالي، انتقلتُ إلى هنا. كان اليوم 108. استيقظتُ قبل بزوغ الفجر، وبقيتُ مستلقيًا لفترة طويلة أستمع إلى توماس، النائم في عتمة الصباح، قبل أن أنزل من السرير بهدوء، وأطوي اللحاف خلفي وأسوّيه حتى لا يبدو وكأنه استُخدم. حملتُ ملابسي وتسللتُ إلى أسفل الدرج. فتحتُ باب هذه الغرفة برفق شديد، ووضعتُ ملابسي على كرسي، وجمعتُ كومة الكتب من غرفة المعيشة، والتقطتُ دبوسين للرسم وقلمًا أحمر اللون كان قد سقط على الأرض هناك. أحضرتُ كوبًا وطبقًا وبعض أدوات المائدة من المطبخ ووضعتها على الطاولة هنا. أخذتُ معطفي وحذائي من الردهة، وأدخلتهما إلى هنا أيضًا، وأغلقتُ الباب. سرعان ما اختفى أثري من بقية المنزل باستثناء القليل من الدفء تحت اللحاف في غرفة النوم، وهو فرق طفيف في درجة الحرارة سيختفي ببطء، وبحلول الوقت الذي يستيقظ فيه توماس، سيكون ذلك الدفء قد اختفى، وستُنسى زيارتي له في الثامن عشر من نوفمبر.

بعد ساعات قليلة، استيقظتُ في السرير الإضافي، وسمعتُ خطوات توماس على الدرج. لقد استيقظ على نسيانه ليوم عادي من أيام الثامن عشر من نوفمبر. أما أنا، في غرفة الضيوف، فقد استيقظتُ على الثامن عشر من نوفمبر رقم ١٠٨,

124

كانت ليلة أمس متأخرة. أطفأتُ النور قبل أن يصعد توماس إلى الطابق العلوي، لكنني لم أنم. استلقيتُ على السرير وانتظرت، وعندما تأكدتُ من أنه نائم، نهضتُ وتوجهتُ إلى الطاولة وجلستُ، وأشعلتُ مصباحي وتابعتُ الكتابة. لقد كتبتُ الثامن عشر من نوفمبر مرارًا وتكرارًا، وما زال التاسع عشر لم يأتِ. أستطيع سماعه في النهار. استيقظتُ على الأصوات نفسها وفي اليوم نفسه. إنه نمط أعرفه. إنه نمط الثامن عشر من نوفمبر، وقد بدأتُ أعتاد على هذه الفكرة.

لا يزال الهواء حولي باردًا، لكن توماس أشعل نارًا في غرفة المعيشة، وأشم رائحة دخان خفيفة تتسرب من تحت الباب. إنها تيارات الهواء الهابطة: اتجاه الريح أو هبة مفاجئة تدفع الدخان إلى أسفل المدخنة، لكن هذا سيزول قريبًا. لقد أكلت بعض الخبز الجاف الذي كان مخصصًا للطيور، والآن لم يتبق منه شيء.

لكن في فترة ما بعد الظهر، عندما يشغل توماس الموسيقى في غرفة المعيشة، سأغادر المنزل وأذهب إلى السوبر ماركت في شارع كليمنتين جيرو لأشتري خبزًا للطيور، ثم سأعود مسرعًا إلى المنزل وسيكون توماس قد خرج، وستكون الطيور قد أُطعمت، طيور الشحرور وأبو الحناء، والطيور الصغيرة - الكبيرة والطويلة الذيل - وكلها. سأشتري بذورًا وخبزًا للطيور، وسأشتري كرات الشحم وأي شيء آخر معروض للطيور الجائعة، لأنني أكلت خبزها وهي بحاجة إلى الطعام، وبمجرد إطعامها، ربما سأستحم، وقد أصنع عجة، يجب أن أتذكر شراء البيض، ربما يجب أن أحصل على موقد كهربائي صغير، يمكن وضعه في الزاوية. ربما يكون هناك شفاء في الجمل. إنه اليوم 124. غدًا سأكتب رقم 125 وبعد غد سأكتب رقم 126، ولا يوجد ما يمكن فعله حيال ذلك.

أنا أعي تمامًا حالتي المزاجية اليوم، فهي متقلبة. أشعر ببعض التذمر هذا الصباح، وهذا واضح، لكن ربما يعود ذلك إلى قلة النوم. أنظر حولي في الغرفة وأبتسم لفوضاي. حذائي في منتصف الأرضية، والملابس والأوراق متناثرة هنا وهناك، وبعض الأطباق والأكواب المتسخة على الطاولة، وقلم رصاص على الأرض تحت كرسيي، ونشارة أقلام رصاص من الليلة الماضية على الطاولة. أشعر بالتعب، لكنني في الوقت نفسه أشعر بنوع من الرضا الخفيف، كالشعور الذي ينتابك عندما تستيقظ لتجد فوضى من صنع يديك، لكنك تعلم أنه ليس خطأك. هناك سبب لهذه الفوضى. كان هناك عمل مهم يجب إنجازه.

المكان فوضوي لأنني قضيت الليل أتذكر. لأنني أعيش في الثامن عشر من نوفمبر. إنه وقت متأخر من بعد الظهر، ولا بد أن توماس كان بالخارج بينما كنت نائمة. لم أسمعه يخرج أو يعود، وأنا جالسة على طاولة أمامي كومة من الأوراق كتبت عليها أنه الثامن عشر من نوفمبر وأن اسمي تارا سيلتر. أشعر وكأنني لم أعد وحيدة. وكأن أحدهم يستمع. لم تضيع أيامي في غياهب النسيان. إنها موجودة. أيامي موجودة في كومة أوراقي، لم تُمحَ خلال الليل، الأوراق تتذكر، وأستطيع أن أرى عليها رقم اليوم كذا ورقم اليوم كذا، والثامن عشر من نوفمبر، لكن ليس التاسع عشر.

لقد دوّنت كل ما أتذكره عن الأيام التي تتكرر، كل ما أعرفه عن الثامن عشر من نوفمبر. لكنني الآن لا أعرف شيئًا. انتقلت إلى هنا في اليوم 108، ومنذ ذلك الحين لم يحدث شيء.

لقد حدث ما حدث. استيقظتُ صباحًا، ونظرتُ إلى المطر والطيور في الحديقة، وأصغيتُ إلى الأصوات في المنزل، وفي فترة ما بعد الظهر خرجتُ مرةً واحدةً فقط، فسمعتُ أنغام موسيقى تنبعث من غرفة

المعيشة. ثم في أحد الأيام بدأتُ أكتب: أنه كان الثامن عشر من نوفمبر، وأن هناك شخصًا ما في المنزل. ولا يزال الوضع على حاله. لقد وصلتُ إلى هذه النقطة، وليس لديّ ما أضيفه. كل ما تبقى لي بعد أيامٍ وأيامٍ من محاولة تذكّر سلسلة أيامي الطويلة هو كومة من الأوراق وغرفةٌ فوضوية.

والآن ليس لديّ ما أقوله. عن أي شيء. أو بالأحرى، ليس لديّ ما أقوله عن تارا سيلتر. لا أعرف ما الذي يحدث. لا أستطيع التنبؤ بالمستقبل. لكنني أعتقد أن هذا سيستمر. وسيستمر. أعتقد أن هذا اليوم سيكون كباقي الأيام، وبمجرد أن ينتهي سيأتي يوم جديد هو الثامن عشر من نوفمبر، وهكذا سيستمر الأمر يومًا بعد يوم، وإذا كتبتُ يومًا ما #365، فسيكون قد مرّ عام، ثم سيأتي يوم الثامن عشر من نوفمبر مرة أخرى، فماذا بعد؟

لا أعرف. أعرف هذا اليوم. أستطيع أن أتنبأ بحالة الطقس بعد قليل. أستطيع أن أتوقع كيف سيمضي اليوم في المنزل، وأستطيع أن أصف الطيور والغيوم الماطرة، وأستطيع أن أحدد أي بائع خضار سينصب أكشاكه في سوق ساحة مينيوليه بعد الظهر، وأستطيع أن أعرف من سيكون في طابور السوبر ماركت في شارع كليمنتين جيرو قبيل الثالثة والنصف بقليل، ومن سينزل من درج مقهى لا بوتيت إيشيل في تمام الساعة 5:50، لكنني لا أستطيع أن أتنبأ بشيء عن مستقبلي. كل ما أستطيع قوله هو أنني استيقظت في الغرفة المطلة على الحديقة وكومة الحطب، واستيقظت بمزاج مختلف تمامًا. في الواقع، استيقظت بمزاج. لديّ مزاج. هذا جديد.

129

إذن، حدث شيء ما في النهاية. تارا سيلتر، وحيدة في الثامن عشر من نوفمبر، اكتسبت مزاجًا غريبًا. ينتابني هذا المزاج كل يوم تقريبًا، ليس طوال اليوم، لكنه يظهر فجأة، ويكون ملحوظًا. واليوم ليس استثناءً، فأنا أشعر ببعض الانفعال، ربما يكون مللًا، لكنه يُسعدني، لأن هناك مساحة مفتوحة حولي، وهناك متسع لمزاج غريب. أشعر وكأن هناك من يسكن هنا. المزاج المتقلب هو

أشبه برقصة، تتأرجح حقاً، رغم ضيق المكان. هناك متسعٌ كافٍ هنا لتغيّر مزاجي. والآن يتغيّر مجدداً. تملأ البهجة المكان.

#136

لا أقول إنني فقدت الأمل، لكنه لم يعد يأتي كثيراً. لقد رحل. كان الأمر بسيطاً، لم يغلق الباب بقوة، بل كأنه، كحيوان، وجد أرضاً جديدة

للصيد، كقطة انتقلت إلى المنزل المجاور أو نبتة نثرت بذورها حيث يسهل نموها.

لكن بدلاً من ذلك، اكتسبتُ حالة مزاجية. إنها ليست كالأمل، لكنها ليست بالعدم. كما امتلكتُ غلاية كهربائية وموقدًا كهربائيًا، اشتريتهما من محل الأدوات المعدنية في المدينة. واشتريتُ مقلاة أيضًا. لقد استبدلتُ أملي بحالة مزاجية ومقلاة.

غالباً ما أشعر بتقلبات مزاجي فور استيقاظي، لكن نادراً ما يساورني الأمل. لا أستيقظ صباحاً وأتمنى أن يكون هذا هو اليوم المنتظر، أو أن أستيقظ في التاسع عشر من الشهر، أو في صباحٍ آخر، في ديسمبر أو يناير مثلاً، أو في صقيع فبراير أو في يومٍ من أيامِ مارس. لا أذهب إلى النافذة متمنياً أن يكون الطقس قد تغير، فقد مرّ وقتٌ طويل منذ أن نمت وأنا أفكر أن اليوم قد يكون مختلفاً عندما أستيقظ.

لا أقول إنني فقدت الأمل، بل أقول فقط إنه نادرًا ما يأتي. لا أستطيع الجلوس والانتظار، وأنا مطمئن إلى أنه سيأتي، لا أستطيع استحضاره، لكن مع ذلك، يعود الأمل أحيانًا. فجأة، من العدم. كما حدث الليلة الماضية.

حدث ذلك لأني خرجت إلى الحديقة. ولأنها كانت منتصف الليل، ولأنني كنت بحاجة للتبول، ولأنني فتحت باب الردهة وتسللت من الباب الخلفي. كان الجو باردًا، مشيت حافية القدمين عبر العشب، متجاوزة شجرة التفاح وصولًا إلى السياج. كانت السماء ملبدة بالغيوم، تبولت في الظلام ثم نهضت، عازمة على العودة مباشرة إلى المنزل، ولكن في تلك اللحظة انقشعت الغيوم تمامًا عند المكان الذي كان القمر فيه مختبئًا.

لم يكن في ذلك شيء غريب. لقد خرجتُ أنا وتوماس إلى الحديقة ليلاً عدة مرات، ورأينا القمر يظهر بين الحين والآخر، دائمًا على حاله، في طور التناقص، مائلاً قليلاً ويتجه نحو المحاق، لكن هذه المرة، عندما انقشعت الغيوم وظهر القمر في السماء، بدا مختلفًا، أكثر ميلاً قليلاً، كما ظننت، كما لو أنه انكمش قليلاً. وفجأة لاحت لي بارقة أمل: قمر في طور التناقص، يتحرك في الاتجاه الصحيح، زمن بدأ يمر.

بقيتُ واقفًا هناك في الهواء البارد بينما كانت سحابة أخرى تطفو فوق القمر، ولكن عندما انقشعت، بدا القمر الذي ظهر كما هو دائمًا، وتبدد أملي. لم يتغير. كنتُ مخطئًا، ما زال قمر الثامن عشر من نوفمبر، وعدتُ إلى المنزل، وتسللتُ إلى الداخل، ومسحتُ قدميّ المبللتين على السجادة، ودخلتُ غرفتي وأغلقتُ الباب بهدوء قدر استطاعتي.

لكنّني أدركتُ فجأةً أن شيئاً ما قد تغيّر. لقد أصبح الأمل في العودة إلى الزمن التقدمي مفاجأةً تظهر في منتصف الليل. كمين، لمحة نادرة، تظهر للحظة ثم تختفي مجدداً.

شعرتُ بميلٍ خفيٍّ يتسلل إليّ. أولًا، شعورٌ بالحزن، مسحةٌ من الكآبة تُخيّم على أفكاري، ظلالٌ من نوعٍ ما، لكنها تومض بطريقةٍ قد تتحول إلى مرحٍ خفيف. عدتُ إلى فراشي، ووعيتُ بهذا الحزن الخفيف الذي، بعد لحظةٍ فقط، دفعني إلى إطلاق ضحكةٍ خافتةٍ مترددة، كما لو أنني لا أعرف إن كنتُ أنا أم العالم هو المُضحك. كان الأمر أشبه بأن تُسخر منك أو أن تكون أنت محور نكتة. فجأةً ترى نفسك من الخارج، ولا يسعك إلا أن تُشارك في الضحك على أي حال.

أتذكر شعوري الليلة الماضية، ذلك الإحساس بالتغيير والأمل، ثم خيبة أملي من عودة القمر إلى شكله المائل المعتاد، فلا يسعني إلا أن أشعر بأن العالم كان يخدعني. لم أكن مخطئًا فحسب، بل وقعت ضحية لمقلب كذبة أبريل. وكأن القمر غيّر شكله لبرهة كافية لأتخيل وجود فرق حقيقي، ثم عاد ليتظاهر بالبراءة معلقًا في السماء، بلا أي تعبير. يضحكني هذا في سرّي، كم أنا ساذج، أقع ضحية لمقلب كذبة أبريل من السماء. شكرًا لك أيها القمر.

146

لقد انخرطتُ في روتينٍ يومي. أستيقظ صباحًا، فأسمع توماس في المنزل. أبقى ساكنةً حين يسود الهدوء، وأتحرك حين تُغطي أصواته على صوتي. أغلي الماء في غلايتي حين يصعد إلى الطابق العلوي، حين يفتح صنبور الحمام، حين يسحب السيفون. صوت الماء يملأ الخزان، فيُخفي أصواتي. صوت الطابعة وهي تطبع الحروف والملصقات يُخفي صوت الغلايات. أتجول في أرجاء المنزل حين يكون توماس خارجًا. لدينا إيقاعٌ خاص، نُكمل بعضنا بعضًا. إنه إيقاعٌ لا يجب أن ينقطع. أخرج مُتخفيةً في الموسيقى، حين يضيع صوت الأبواب التي أفتحها وسط الأصوات. أفتح أكياس التسوق حين لا يُسمع صوتها.

لم أجد مخرجاً من الثامن عشر من نوفمبر، لكنني وجدت طرقاً وممرات خلال النهار، ممرات ضيقة وأنفاقاً يمكنني السير فيها. لا أستطيع الخروج، لكنني أستطيع إيجاد طرق للدخول.

أجد طريقي إلى عالمٍ يمكن التنبؤ به، نمطٌ يكتسب المزيد والمزيد من التفاصيل. أتحرك بانسيابية داخل المنزل وخارجه. أمضي يومي بانسيابية. أنا كالسائل. أدع نفسي أنساب مع الأصوات، كالسائل، والسوائل تتدفق لتملأ أي مساحة متاحة.

أسمع خطوات توماس حول المنزل. لا تكاد تفصلنا مسافة. أحسب الأيام، لكنها لم تعد تزيد المسافة. لقد وجدت طريقي إلى يومه. نتحرك كجسد واحد، في انسجام، كأننا نعزف لحنًا ثنائيًا، أو كأننا أوركسترا كاملة. نسمع المطر وضوء الشمس المتغير. نسمع صوت السيارات المارة، وزقزقة العصافير في الحديقة، ونسمع خرير الماء المتدفق في أنابيب المنزل.

الأمر أسهل الآن. إذا تابعتُ يومه، إذا حافظتُ على إيقاعه، إذا لم أُخلّ بالنمط. إذا استيقظتُ على صوت خطواته على الدرج. إذا غليتُ الماء بينما هو يطبع ملصقات رسائلنا وطرودنا. لديّ الأصوات وحركاته. إنه مجرد الوقت الذي انقطع. نحن معًا. لا يفصلنا سوى جدران في منزل. لا أحد ميت، لا أحد مصاب، وهذا ليس شيئًا نتحدث عنه. الكلمات ليست ضرورية. هناك مقاطع لفظية وهناك إيقاع. أسمع الإيقاع في المنزل، خطوات على الدرج. أسمع قطرات المطر المتوترة وغير المتوترة على...

نافذة زجاجية. الموسيقى ضرورية. للإيقاع ولكلماتٍ مبللة كالمطر. إنها شيءٌ يُمكن سماعه: نحن أوركسترا هادئة، ونحن نعزف الآن. استمعوا.

رقم 151

عندما يكون توماس في المطبخ، أستطيع أن أسمع الروابط بيننا. يرسل رسائل ويشغل موسيقى في أرجاء المنزل. رسائله مفهومة. تبدو كصوت الماء الجاري، كصوت المعدن على المعدن، كصوت أبواب الثلاجة وهي تصطدم بأسطح العمل، لكنها في الحقيقة حفلات موسيقية يعزفها، وأنا أعزفها أيضاً، بصوت خافت جداً.

تبلغ المسافة بيننا أقصى مداها عندما يكون في غرفة المعيشة، وأحيانًا تراودني رغبة جامحة في تجاوزها، أشعر برغبة في النهوض وفتح الباب وإفساد كل شيء، وتعطيل روتيننا. لكنني أعلم أن دخولي إلى هناك سيزيد المسافة بيننا، لذا لا أدخل. لا أدخل وأُلقي بـ 151 يومًا على الأرض كومةً بيننا. لا أدخل تلك الغرفة وأحاول إخراجه من روتينه. أتعايش مع هذه المسافة. أجلس على السرير وأقرأ. أعلم أنه سيعود قريبًا. لماذا أُلقي بـ 151 يومًا على الأرض كومةً وأنا أستطيع أن أعيش هذه المسافة القصيرة؟

عندما يكون توماس في الردهة، يكون قريبًا جدًا، لكن هذا الشعور يزول. يحمل أكواب الشاي من مكان لآخر. ينزع المعاطف من علاقاتها ويلتقط الطرود من على الأرض. أتنفس الصعداء. أنا بأمان. لن يدخل إلى هنا. لن يدخل ويجد أيامه الـ 151 المنسية. يقترب، لكنه يمر من الباب. أنا بأمان. من الأيام التي تتراكم بيننا. من توماس وكل نسيانه.

أسمع وقع أقدامه على الدرج، وبعد لحظات سأسمعه يتحرك في الطابق العلوي. لا أشعر ببعده، فكل خطوة تنتقل عبر السقف كهمسة تخترق جدران المنزل. فقط عندما يكون في غرفة المعيشة أشعر ببعده، وفقط في الردهة أشعر بقربه.

تكون المسافة أقصر ما يمكن في الليل. عندما ينام توماس، لا يفصلنا سوى السقف، خط رفيع بين شكلين من أشكال الزمن. أجلس في غرفة.

ذلك الذي يُبقي العالم مفتوحًا ويُبقي المسافة بيننا أقصر ما يُمكن. هو يُسمّي السقف أرضية. وأنا أُسمّي الأرضية سقفًا. لكنها مجرد كلمات، وليست مسافة، بل خطٌّ يُبقينا مُتصلين.

إنه مجرد منزل ذو غرف. هناك شخص ما في المنزل. اسمه توماس سيلتر، وهو ينتقل من غرفة إلى أخرى. يعزف موسيقى بإيقاعاته الخاصة. لمن يعزف؟ إنه يعزف لي.

157#

يمرّ اليوم سريعًا، يكاد ينقطع. أرغب، لكنها رغبة عابرة. أتوق، لكنها رغبة سهلة. إنه يومٌ يحمل في طياته تفاصيل أكثر فأكثر، ويصبح أكثر قابلية للتنبؤ. أشعر وكأنني في بيتي، أشعر وكأنني في بيتي في تفاصيل أكثر فأكثر. أعرف كيف يمضي اليوم، أعرف أصواته والفواصل بينها، أعرف تغيرات الضوء وشدة المطر. أرى النور يضيء الغرفة حين تخترق الشمس السماء. أسمع تغريد طائر الشحرور المتعرج، وأزيز سيارة مكتوم على بُعد شارعين، ثم تتكرر الأشياء نفسها بترتيب مختلف: ضوء، سيارة، طائر. ثم مرة أخرى: ريح في الأشجار، أصيص نبات في مهب الريح، وقفة قصيرة، سيارة. ثم بعد ذلك: ريح، أصيص نبات، وقفة طويلة، سيارة. وقبل أن أدرك، ينتهي اليوم.

164

يسهل مرور الأيام إذا استرخيت. أو بالأحرى: لا أمنح الأيام فرصة لفعل أي شيء. إنها تفعل ذلك من تلقاء نفسها. لستُ بحاجة لفعل أي شيء سوى كتابة رقم في الدفتر صباحًا. لستُ بحاجة للحديث عن الأيام، فالورقة هناك فارغة، ويمر الوقت أسرع إن لم أنطق بكلمة. أنساب مع الأيام، شيء ما أو شخص ما ينساب. أتنفس. أقول لنفسي إن الجمل لم تعد ضرورية. أسمع اليوم يتبع أنماطه، وقبل أن أدرك، يكون اليوم قد انتهى.

زيادة.

176#

يبدو أن الوتيرة قد تسارعت، ليس كثيراً، فلا يوجد تسارع مفاجئ أو اندفاع متهور، إنها تدريجية تماماً، ولا أفعل شيئاً سوى متابعة اليوم، وقبل أن أدرك ذلك يكون اليوم قد انتهى.

179#

الأيام تمضي وأنا أسير معها. أستيقظ وأتبع روتيني، وقبل أن أدرك ذلك ينتهي اليوم.

180

أعدّ الأيام. تتلاشى يومًا بعد يوم بمجرد حلولها. أكتب رقم اليوم في دفتري، وقبل أن أدرك، يكون قد انقضى. لا أعرف لماذا يجب عدّ الأيام، لكنني لا أجرؤ على التوقف. أقول لنفسي إن عليّ التمسك بالأيام. ربما أجد عونًا في أعمدة الأرقام. كحبلٍ يُمكنك استخدامه لانتشال نفسك من بئرٍ إذا سقطتَ فيها. لكن إن لم يكن هناك من يمسك بالطرف الآخر من الحبل، فلن تجد عونًا. لن تخرج أبدًا على أي حال.

181#

الظلام حالكٌ هنا في الأسفل، والجو ساكن. ربما يكون الشعور بالدوار هو ما يُساعد الأيام على المرور، بسبب نقص الأكسجين. الهواء رطب، ورغم صعوبة تصديق ذلك، إلا أن اليوم مليءٌ بالتفاصيل التي تجعل الوقت يمرّ سريعًا. قد يظن المرء أن الظلام بلا تفاصيل، لكن هذا صحيحٌ فقط إن لم يُحصِ الأصوات، أو الضوء الخاطف في الأعلى، تلك اللمحة من السماء. ربما أنتظر فقط أن يطول الحبل بما يكفي، وأن يتراكم عليه ما يكفي من الأيام ليصبح ثقيلًا بما يكفي للرمي، وأن يهبط هناك، وأن يصل إلى هنا في الأسفل، وأن يراه أحدهم ويبدأ بسحبي. كم يومًا سيستغرق ذلك؟

185#

ومع ذلك، أجد نفسي أحيانًا أفكر أن ربما يكون هذا هو اليوم المنتظر. ربما أستيقظ على التاسع عشر من نوفمبر. أو ربما لن يكون التاسع عشر. ربما هناك أسابيع وشهور تنتظرني بعد الثامن عشر من نوفمبر. ربما، إذا استرخيت وتركت الأيام تتدفق، ربما تطفو الأيام على السطح كفقاعات، وفجأة يصبح مايو أو يونيو، وأستيقظ على ضوء الصباح، وأُفتن بتغريد الطيور. أو أستيقظ في أغسطس، على صباح صيفي متأخر، وكل شيء سيبدو مختلفًا. سأستيقظ على صوت توماس على الدرج. على درج يصرّ كما يصرّ الدرج القديم بعد أن يطول الصيف.

فجأةً، تذكرتُ أصوات الصيف. تذكرتُ صرير الدرج. لا تسمعه في وجود الرطوبة في الجو، ولا وجود له في الشتاء، لكن في مرحلة ما من

الصيف، يبدأ الدرج بالصرير. يعود ذلك إلى جفاف الخشب، وعليك أن تخطو بحذر، خاصةً إذا كنت تصعد أو تنزل الدرج أثناء نوم أحدهم. إذا كان منتصف الليل أو فجر الصباح، عندما يسود السكون، ويملأ الصرير الجاف الغرفة إن لم تضع قدميك بحذر شديد وهدوء على كل درجة. إنه صوتٌ يُذكّر بالصيف وبالسنوات الطويلة التي قضاها هذا الدرج، وبأجيالٍ حملتها أقدامٌ صاعدة وهابطة. لكن عندما ينتهي الصيف، في منتصف سبتمبر أو في وقتٍ ما من أكتوبر، يختفي الصوت من الدرج، وتعود الرطوبة إلى الخشب، ويحلّ الخريف بنسائمه وسلالمه الصامتة.

أفكر الآن في أصوات العام، في الأصوات التي رحلت وتلك التي غطت في سبات عميق. أتمنى أن يستيقظ العام، أن يعود، أن يتدفق في الثامن عشر من نوفمبر. لكن كل ما بوسعي فعله هو الاسترخاء وترك الأيام تمضي، ومنح الوقت السكينة ليستعيد مساره الطبيعي. من المفيد عدم إحداث أي ضجيج، فهذه ليست طريقة إيقاظ العام. كل ما بوسعي فعله هو ترك اليوم يستيقظ تدريجيًا، في مكان ما تحت سماء الثامن عشر من نوفمبر. الجمل ليست ضرورية، ولا أعمدة الأرقام. ما هو ضروري هو الهدوء والسكينة. هسسس.

186#

لكن إن لم تكن الجمل ضرورية، فلماذا أجلس إلى الطاولة وأكتب عن صرير الصيف؟ وإن لم يُجدِ عدّ الأيام نفعاً، فلماذا أكتب رقماً جديداً كل صباح حين أسمع توماس يضع الغلاية على الموقد؟

ربما لا تعد جملي أكثر من مجرد اتصالات متكررة بخط طوارئ لا يجيب عليه أحد. محاولات يائسة لترك رسالة لشخص لا يعاود الاتصال أبدًا.

ربما لا تكون أعمدة الأرقام التي أكتبها حبلاً أستخدمه للخروج من بئر، بل ربما أكون قد خرجتُ بالفعل، وعمود الأرقام هو سياج أتشبث به وأنا أسير على حافة هاوية. إذا فاتني يوم، ستحدث فجوة في سياجي وسأسقط من الحافة. لذا أكتب رقماً كل صباح وأسير على حافتي. ولكن إلى أين نحن ذاهبون؟ ومتى سيجيبني أحد؟

199

كنتُ أخشى حدوث هذا، وها هو قد حدث. مرات عديدة. بدأتُ أتبع توماس. أستعد للخروج عندما أسمع الموسيقى في غرفة المعيشة. أنزل إلى السوبر ماركت، وأتسوق كالمعتاد، ثم أجد نفسي متجهةً إلى مكتب البريد. أراه يدخل، فأنتظره في الخارج حتى يخرج، ثم أتبعه حتى

أكاد أصل إلى الغابة، قبل أن أستدير وأعود مسرعةً إلى المنزل، وأقرر ألا أكتب عن ذلك، وألا أكرره.

204

لا يحدث هذا كل يوم. أحاول ألا أفعل، لكن أحيانًا لا أستطيع مقاومته. أخرج للتسوق، أسلك دروبًا لا يسلكها توماس. ثم أنعطف إلى المدينة. أتجه نحو السوق، وفجأة أتذكر نزهاتنا معًا في المدينة، نتسوق من أكشاك مألوفة، ونتجاذب أطراف الحديث مع الباعة الذين كانوا يتاجرون في الساحة.

أعرف توماس منذ صغره، والباعة يحيّونه ويسألون عنه. أتذكر حينها كيف كنا نتردد على مقهى "لا بوتيت إيشيل"، أقول لنفسي: يجب أن أذهب لأحضره، لآخذه إلى هناك، لنجلس في المقهى بينما تمطر السماء، ثم أتخيله يتجول بحرية على بُعد بضعة شوارع. أسلك طرقًا كان عليّ تجنبها، وأنعطف في زوايا خاطئة، وأتبع مساراته المعتادة، فألمحه في مكان أبعد في الشارع، أراه يختفي من خلال باب مكتب البريد الأصفر، أنتظر، وأتراجع قليلًا إلى أحد الأزقة الضيقة المقابلة لمكتب البريد، فأراه من خلال نوافذ مكتب البريد، أراه يخرج. أبدأ في اتباعه ثم أستدير فجأة. وأقرر، مرة أخرى، ألا أفعل.

207

لكن الأمر يحدث على أي حال. أتبعه من بعيد، يمشي على الطريق حاملاً رسائل وطروداً، أبقى على مسافة كافية، لكنني مع ذلك أشعر أنني قريب جداً. ومع ذلك، أضيق المسافة قليلاً، فأراه يفتح الباب ويدخل.

أشعر بساقيّ ترتجفان، وقدميّ تخدران، ويداي تخدران. أشعر بحرارة وبرودة متناوبتين، وضيق في التنفس ودوار يكاد يصيبني. أنوي العودة أدراجي، لكنني بدلاً من ذلك أعبر الشارع وأسير على الرصيف المقابل لمكتب البريد. أراه بالداخل. أحاول جاهدةً أن أتنفس ببطء وعمق. إذا مددت عنقي، أستطيع رؤية كل شيء من خلال النافذة. إنه يتحدث إلى شخص ما خلف المنضدة، امرأة. تبدو هادئة تماماً، وكأنها لا تدرك كم هي محظوظة. أن تتمكن من التحدث إليه وكأن شيئاً لم يكن. بكل هذه البساطة. أن تكون قريبة منه هكذا. أن تتمكن من رؤية وجهه. أن تتمكن من رفع رأسها. دون أن تفقد وعيها.

أسرعتُ بالمرور حتى لا يراني أحد. كنتُ أنوي مواصلة السير، لكنني وجدتُ نفسي أعبر الشارع. اقتربتُ من الباب. كانت ألواح الزجاج مثبتة

في إطارات فولاذية صفراء، والزجاج معتم، ولم يكن سوى ظلٍّ خلف الباب، لكنني كنتُ أعرف مكانه. رأيتُ خيالًا، وتوماس هو ذلك الخيال.

أخطو بضع خطوات جانبًا، وأحاول المضي قدمًا، ثم أستدير وأعود إلى الباب. أمد يدي وأمسك بالمقبض. الباب ثقيل، أشعر بمقاومته، لكنه يُفتح في النهاية. لقد وضع أغراضه على المنضدة. أسمع

صوت المرأة، بضع كلماتٍ رقيقة، سؤالٌ على ما أظن، وبعد ثانيةٍ أجاب توماس. لكنني لم أستطع البقاء هناك أكثر من ذلك. عند سماعي صوته، تراجعتُ وأفلتُّ مقبض الباب. ترنّحتُ، ووضعتُ يدي على الحائط لأتوازن، ثم استدرتُ وسرتُ أمام النوافذ دون أن أنظر من خلالها.

لم أره يخرج، وأنا متأكد من أنه لم يرني أيضًا لأنني كنتُ قد انطلقتُ بالفعل في الشارع في الاتجاه المعاكس. لكنني سمعتُ الباب يُغلق خلفه. الباب يُغلق خلف توماس الذي لم يكن معه طرد. توماس يغادر مكتب البريد. توماس يترك بابًا فولاذيًا أصفر. أن يكون بابًا. أن يُلمس. ثم يعود ببطء إلى مكانه ويُغلق على مفصلاته البسيطة.

لكن هذا ليس أنا. أنا لا أنغلق فجأة. ليس لديّ مفصلات. لا يوجد شيء أتمسك به. أتوقف فجأة وأستدير قليلاً بينما يختفي خلف الزاوية، ثم أقف هناك على هذا النحو، ملتوية نوعاً ما، لأنني لا أستطيع تحريك ساقيّ، لكنني أستطيع تدوير جسدي ورؤيته يختفي خلف الزاوية.

إنه لا يراني. إنه لا يراني هناك، ملتفةً حول نفسي، ولا يراني أستقيم، أو بعد لحظات، أبتعد ببطء، لأنه يسير في الاتجاه الآخر، حول الزاوية باتجاه الغابة، وأنا لا أتبعه لأن لدي ما يكفي من العمل لمجرد البقاء منتصبة، أخطو بضع خطوات، ثم أتوقف وأضع يدي على الحائط.

إن الخسارة هي ما يذهلني. إنه الشوق لما فُقد، ولا أملك حيلة حيال ذلك.

لن أستطيع التغلب على الفقد إلا إذا انحصرت في الأصوات. حينها فقط أستطيع التفكير بوضوح، وحينها أستطيع محاولة إيجاد حل، إجابة، مخرج. أستطيع الجلوس في هذه الغرفة وأترك الأيام تمر تباعاً.

#219

لم أعد أتبع توماس. حدث ذلك في مناسبتين أخريين، لكنني توقفت عن ذلك. خرجتُ إلى الحديقة مرةً في المساء، ورأيته من خلال نافذة غرفة المعيشة.

عتبة النافذة تمثال نصفي ورثه توماس عن جده، الذي لا أعرفه، لكنه موضوع بطريقة تسمح بالاختباء خلفه. وقفتُ خلفه، مستعدًا للتراجع إن التفت توماس ونظر من النافذة، لكنه لم يفعل، والآن أعرف كيف يتحرك في غرفة المعيشة. رأيته يجلس على الكرسي بذراعين مع كتابه. أعرف متى سينهض ومتى سيتجه إلى المطبخ. وقفتُ في الظلام ورأيته ينهض من كرسيه ويضع الحطب في النار قبل أن يغادر غرفة المعيشة. رأيتُ الدخان يتصاعد من المدخنة تحت المطر. يمكنك رؤيته إن تراجعت قليلًا ونظرت للأعلى، لكن هذا لا يمكن إلا عندما يكون توماس في المطبخ. ثم يمكنك أن تتراجع بضع خطوات، خطوتين، ثلاث خطوات، ربما أربع، وهناك ترى عمودًا رفيعًا من الدخان يتصاعد من المدخنة، مرئيًا في ضوء مصباح الشارع على الجانب الآخر من المنزل، وإذا تحركت إلى الخلف أكثر، يمكنني رؤية المنزل بأكمله، مع وجود أضواء في النوافذ، ويمكنني رؤية ضوء في غرفة الضيوف، لكن لا أحد موجود هناك.

بينما كنتُ في الحديقة، بدأ المطر بالهطول، فلجأتُ إلى مخزن الأدوات وجلستُ هناك أنتظر توماس ليصعد إلى الطابق العلوي. جلستُ على صندوق خشبي وبابه مفتوح على الحديقة، وعندما تغيّر ضوء الشمس قليلاً، عرفتُ أنه أضاء المصباح هناك. غادرتُ المخزن، وفتحتُ الباب الخلفي برفق ودخلتُ خلسةً، وما إن سمعتُ صوت سيفون المرحاض في الطابق العلوي حتى أغلقتُ الباب وأحكمتُ إغلاقه بصوت نقرة خفيفة، ثم فتحتُ باب الغرفة الإضافية ودخلتُ وأغلقتُه خلفي.

لكنني لم أعد أفعل ذلك. لم أعد أتبعه ولا أراقبه من خلال نوافذ الليل. تتسع المسافة بيننا حين أراه. أعيش يومي بانسيابية أكبر حين أتبع إيقاعي، إيقاعه، إيقاعنا. حين أصغي إلى حركاته، حين أنساق مع الموسيقى وأدع نفسي أسير في يومي. أستيقظ في الصباح، أصغي وأتبع الأصوات، وقبل أن أدرك ذلك، يكون اليوم قد انتهى.

T223

لقد اكتشفت شيئًا غريبًا. أو على الأقل، ليس شيئًا اكتشفته أنا، لأنني كنت أعرفه بالفعل، لكنني اكتشفت أنه

أمرٌ غريب. إنها مشكلةٌ لا أستطيع حلّها. هناك أشباحٌ ووحوش. توماس هو الشبح وأنا الوحش.

كل مساء، عندما يعود توماس إلى المنزل تحت المطر، وبعد أن يعلق معطفه في الردهة، وبعد أن يرتدي ملابس جافة ويعلق المبللة على المدفأة في الطابق العلوي، وبعد أن يضع الحطب في المدفأة في غرفة

المعيشة ويشعلها من جديد، وبعد أن ينتهي من كل هذا، كما يقتضي روتينه، ينتقل إلى النقطة التالية. يرتدي حذاءً مطاطيًا لأن حذاءه الأصلي بجانب المدفأة، لا يزال مبللاً، لكن الحذاء المطاطي موجود داخل الباب الأمامي، فيرتديه، ويفتح الباب، ويعبر الحديقة الأمامية ويتجه إلى سقيفة الحديقة. يبحث قليلاً هناك. أعتقد أنه كان يبحث عن مجرفة لكنه لم يجدها، فأخذ بدلاً منها مجرفة صغيرة معلقة بحلقة جلدية على خطاف في الحائط. مسلحًا بها، يعود إلى الحديقة. كان المطر يهطل بهدوء شديد بينما كان يسرع على طول ممر الحديقة، وصولاً إلى حوض الكراث والسلق السويسري، يغرز المجرفة عميقاً في الأرض بجوار كراث سمين، ويحرره ويسحبه للخارج، ويضرب المجرفة على حجر لإزالة بعض التربة، ويسرع عائداً إلى الحظيرة، ويعلق المجرفة، ويأخذ بعض البصل من صندوق وحبة بصل صغيرة من كيس شبكي معلق من السقف، ويخرج من الحظيرة، ويمر بنافذة المطبخ وعبر الباب، ويغلق الباب ويحمل الكراث والبصل إلى المطبخ.

هذا روتين يومي بحت. هذه هي الأشياء التي تُشكّل يومه. يحفر الكراث في الحديقة. يجلب البصل من المخزن. أعرف ذلك لأني رأيتُ الحفرة التي خلّفها الكراث في الأرض، وبقايا التربة الطرية على المجرفة المعلّقة في المخزن. سمعتُه في الحديقة، وسمعتُ صوت المعدن وهو يصطدم بالحجر، لأني كنتُ واقفًا على الجانب الآخر من المنزل أستمع إليه بينما كان هناك، ورأيتُ صخرة مسطحة مُغطّاة بكتل صغيرة من التراب، تذوب في المطر.

عند عودته إلى المنزل، يأخذ جزرتين من أسفل الثلاجة، ويجد مكعب مرق، ويقطع البصل - أعرف ذلك لأني رأيت قشور البصل وشرائح الجزر في صندوق السماد. إنه يُعدّ حساءً، ولذلك يحتاج إلى الكراث. يقطعه إلى شرائح رفيعة مائلة - أعرف ذلك لأنه يقطع الخضراوات دائمًا بشكل مائل - ثم يغسل شرائح الكراث في وعاء من الماء ويضيفها إلى الحساء ليُطهى على نار هادئة.

ليس في ذلك غرابة، باستثناء أن الكراث يعود كل صباح مع بزوغ الفجر إلى مكانه. في الصف أسفل الحديقة، لم يمسه أحد، ولم يقطفه، ولم يقطعه، جاهزًا للقطف من الأرض. هكذا هي الأمور، وقد اعتدت على ذلك.

بعد ظهر أمس، بينما كان توماس بالخارج، قطفتُ كراثةً من الطرف الآخر للصف. ثم غليتُ الماء، وأذبتُ فيه مكعب مرق دجاج، وأضفتُ الكراث المقطّع إلى شرائح رفيعة. طبختُ حسائي الخفيف وتناولته بجوار النافذة في غرفة المعيشة.

اليوم اختفى الكراث. كما هو الحال مع الكراث عادةً، بالطبع، عندما يُقتلع ويُقطع ويُطهى ويُؤكل. لقد خرجتُ إلى الحديقة، ونزلتُ إلى حقل الخضراوات، ولم أجد الكراث في الصف. لم يكن ينبغي أن يُفاجئني هذا، لكن فجأةً بدا كل شيء خاطئًا. هكذا كانت الأمور عندما كنا معًا. بمجرد أن تُؤكل الأشياء، تختفي. كنا نأخذ أشياءً من العالم. لكن عندما يكون توماس وحيدًا، لا شيء يختفي. أنا من جعلت الأشياء تختفي. لا بد أن هذا هو السبب. أنا أعيش في زمن يلتهم العالم.

بدوني، يعود يوم توماس، ويُصلح العالم، ويعود الكراث إلى مكانه، وأنا متأكد من أن الأمر نفسه ينطبق على البصل. كان هناك الكثير منه في الحظيرة لدرجة أنني لا أستطيع حصره، ولكن لو ذهبت لأتأكد، فأنا متأكد من أن الأمر سيكون نفسه. يمكنني عدّه لو أردت حقًا أن أعرف، لكنني لست بحاجة لذلك. أنا أعرف بالفعل. أعرف أنه إذا أخذت بصلًا من الحظيرة لنفسي، فسوف يختفي. أعرف ذلك لأني رأيت حقيقتنا: توماس شبح وأنا وحش. هكذا هي الأمور. الزمن هو من فعل هذا. بدوني، توماس شبح، أما أنا فوحش، وحش، آفة.

ليس الأمر أنني لم أكن أعرف هذا. ليس الأمر أنني لم أرَ الرفوف تفرغ شيئًا فشيئًا، لكن الأمر أصبح الآن مشكلة. إنه يُحدث فرقًا. إذا كان توماس شبحًا وأنا وحش، فإن المسافة بيننا أكبر مما كنت أظن. توماس لا يترك أثرًا في العالم، أما أنا فألتهمه. هو نمط في المنزل، وأنا وحش في غرفة الضيوف. إذا خرجتُ إلى هناك، سنصبح وحشين. سأجره إلى عالمي وسنأكل طعامًا لشخصين. أنا من يُحدث الفرق. هو شبح، والأشباح تطارد. تعود مرارًا وتكرارًا. الوحوش تعيث فسادًا في العالم ثم تغادره.

أشعر باليأس. أجلس في هذه الغرفة مُطلًا على الحديقة وكومة الحطب. لا أفعل الكثير. ومع ذلك، فأنا أستنزف العالم بينما يعيش توماس في عالم يُجدد نفسه. أترك أثرًا. لقد أصبحتُ وحشًا مُفترسًا، وحشًا في عالمٍ محدود. سربًا من الجراد. إلى متى سيصمد عالمي الصغير في وجهي؟

T224

لم أعد أستطيع أن أنساب خلال اليوم. يبدو أنه قد تقلص كثيرًا، أو ربما ازددتُ ثقلًا. ازددتُ ضخامةً وبلا شكل. لا يستطيع الوحش أن يدخل ويخرج من اليوم، الوحش ليس سائلًا. لا يستطيع أن يملأ فراغات اليوم. إنه يفيض. إنه ينمو. لا يستطيع الاختباء في العالم. الوحش يزمجر. إنه يعيث فسادًا. لا يستطيع أن يبقى ساكنًا. لا يستطيع أن يعزف في

أوركسترا هادئة. الوحش بطيء وثقيل. بدأت الأيام تمر ببطء. أنا أمتلئ. أنا لا أنساب. أنا من يبطئ الأمور.

T225

لكن ربما نكون كلانا أشباحًا، هكذا أظن. أتمنى ذلك. ربما يكون كل هذا مجرد هلوسة. أنا شبح يظن نفسه وحشًا. توماس شبح يظن نفسه إنسانًا. نحن متشابهان. أفكر مجددًا. أتمنى ذلك. نعيش في عالم الأشباح. مع كراث شبحي يختفي أو يعود. نحن متشابهان. لسنا وحوشًا ولا بشرًا، بل مجرد أشباح تظن نفسها وحوشًا أو بشرًا. تشغل فراغًا لا يشغله أحد أو تشغل فراغًا يشغله اثنان.

أو ربما أكون نائماً في سريرٍ بفندقٍ في باريس، أحلم بأنني وحشٌ يلتهم عالمي في زمنٍ متوقف. متى سأستيقظ؟ أيقظوني.

226

لكن لا جدوى. لا أستطيع إقناع نفسي بأن هذا مجرد حلم. كلما حاولت ذلك، أملأ عالمي بسيناريوهات أخرى. أتخيل أننا كلانا ميتان و

أتخيل أن الأمر برمته مجرد وهم لأرواح تحوم، أو أن توماس غادر الثامن عشر من نوفمبر منذ زمن بعيد، وسافر دوني. إلى التاسع عشر والعشرين، إلى ديسمبر ويناير وفبراير ومارس. أتخيل أنني أتجول في عالم من الظلال بينما استمر الجميع في حياتهم كما لو أن الزمن لم يتغير.

لكن لماذا كان سيواصل رحلته؟ ما زال هنا. أستطيع سماعه على الدرج. هو هنا، لكننا لم نعد فرقة موسيقية. لم نعد متطابقين لأنني وحش، ألتهم عالمي.

أشعر الآن ببطء اليوم. لستُ سائلاً يتدفق خلال النهار، يملأ الفراغات وينتقل إلى اليوم التالي. لسنا أوركسترا تعزف طوال اليوم. لسنا شخصين يرقصان في منزل، لسنا شبحين يحلمان أحلاماً مختلفة، ولسنا موسيقى، نحن وحش وشبح. أشعر بالجدران تضيق حولي وأنا أنتفخ، ولم أعد متأكداً إن كان هناك مكان لي هنا.

T227

إنها الكلمات التي تفعل ذلك. بدأنا كعاشقين في مشهد ضبابي. مسافرين مبتهجين. تسوقنا وشربنا القهوة في وقت ما من الثامن عشر من نوفمبر. قلينا البيض في المطبخ واخترنا شوكولاتة بنكهة البرتقال من رف في السوبر ماركت، ثم اختفت الأشياء وأصبحتُ آفة، وحشًا يلتهم عالمي. أقطف الخضراوات من الحديقة فتختفي الحديقة.

أمضغ وأمضغ. هناك قضم وقضم وزبد يسيل من فمي. يسيل لعابي من زوايا فمي. على ذقني. تتراكم القمامة. تصبح الرفوف أكثر فأكثر خواءً. يواصل الوحش اندفاعه، يومًا بعد يوم. قضم، قضم. عندما أمضغ خبزي المقرمش أسمع صوته في رأسي. أنت تبدو كحصان، أقول لنفسي، كحصان يقضم الجزر. قطة تمضغ طعامها الجاف. كلب يقضم عظمة، أرنب عند وعاء طعامه، سرب من الحشرات يقضم طريقه عبر الغابات والحقول. أنا كل هذا، أنا جحافل من المخلوقات المفترسة. أمضغ، وأقضم، وأمضغ. حديقة حيوانات، وحظيرة مكتظة، وسرب طنان.

أسمع توماس يصعد الدرج. لا يترك أثراً. يشتري ويشتري، ولا يحدث شيء. يقطع الخبز ويفرم الكراث. يُصدر حفيفاً بأكياس التسوق، يتحرك في أرجاء المنزل ويضع قدميه على كل درجة من درجات الدرج، لكن كأنه لم يكن هنا قط. أسمعه في الحمام. شبح يتبول واقفاً. روح تتبول فحسب. أي عالم هذا؟

الكلمات هي التي تُحدث الفرق. ظننتُها "وحشًا"، والآن بدأتُ أشعر بالنضج. من أنا الآن؟ هل أنا وحش أم مجرد إنسانة في غرفة؟ هل أنا مصدر إزعاج أم مجرد كائن حيّ ذو ساقين، لديه وقت فراغ أكثر من اللازم؟ ماذا أسمع؟ هل أسمع حبيبي وهو يتبوّل، هل أسمع زوجي وهو يتبوّل، هل أسمع صوت شبح يتبوّل، هل أسمع أي شيء على الإطلاق؟ لا شيء يُذكر. كل شيء هادئ هنا. لقد سحب السيفون، وامتلأ الخزان، وتدفّق الماء عبر الأنابيب، اكتمل المشهد. إنه يأخذ استراحة، أو ربما تبخر، كوعي خالص، كالهواء الحيّ. لكنني آمل أن أسمعه مجددًا بعد دقيقة أو دقيقتين، عندما ينزل الدرج.

مزاجي هو الذي يختار الكلمات لي. لديّ مزاج. هناك الكثير مما يمكن فعله بهذا الشيء. بإمكانه انتقاء الكلمات من كامل المعجم اللغوي، بإمكانه تسمية اللغة لوحة ألوان، بإمكانه إضفاء ألوان على الأشياء، حتى تلك التي لا ألوان لها. لا أتحدث إلى أحد، لكن عالمي يكتسب المزيد والمزيد من التفاصيل، أنتقي الكلمات من عالم مليء بالأصوات، من مزاج يضفي لونًا، لونًا ينتقل إليّ. لكن إضفاء اللون على الأشياء يشغل حيزًا. لوحة الألوان تفيض بالألوان. تتدفق الكلمات بكثرة، فيصبح اليوم أثقل وأبطأ، ويتوقف.

آه، الآن الشبح الذي يتبول ينزل من على الدرج.

T228

أصبحتُ أتسوق من مكان أبعد. لم يعد بإمكاني الاستمرار في استخدام السوبر ماركت في شارع كليمنتين جيرو. لقد رأيتُ بالفعل نتائج ذلك:

أرفف فارغة ومجمدات خاوية. ليس في ذلك جديد. لقد لُوحظ هذا الأمر خلال أيامنا الضبابية، وهو موثق جيدًا، وتم اختباره وتسجيله خلال أيام مراقبتنا. لكنني أرى الآن دلائل على ذلك.

أينما ذهبت، أجد المزيد من الأشياء تختفي. لقد أُكلت جميع قطع الشوكولاتة بنكهة الكراميل. بعض سلال الخبز فارغة الآن، وعلى الرف السفلي في قسم الخبز، لا يوجد سوى علبتين من البسكوتي محاطتين بالهواء لأنني أخذت الباقي. اختفت أنواع عديدة من الجبن من أقسام الجبن، ولا توجد طماطم في ممر الخضراوات والفواكه، ولا يمكن تجاهل الخدوش العميقة التي لحقت بالأرفف. لقد فعلتُ هذا، حدث تدريجيًا، يومًا بيوم.

أحاول تنويع مشترياتي. أبحث عن متاجر لم أزرها من قبل. أغير عاداتي وأتناول أطعمة لا أتناولها عادةً. أختار مشترياتي بناءً على ما هو متوفر بكثرة وأي الرفوف ممتلئة، فأشتري علب سمك غير معروفة، وأكياس حساء بودرة غريبة، أو بسكويت لم أتذوقه من قبل.

أفكر في المستقبل. بدأتُ أتأمل الحدائق، تلك الأراضي التي لا تزال تحوي خضراوات، وأشجار التفاح المثمرة، والعنب الذي لم يُقطف بعد، رغم أننا في نوفمبر. أُلقي نظرات خاطفة على الأرض تحت أشجار الجوز في الحدائق. أبحث عن بقايا من العالم لن يستخدمها أحد. فائض. بدأتُ أتخيل مستقبلي كرحالة، أجوب الأرض من مكان إلى آخر، متشردًا، أجمع القليل هنا وهناك، أشتري القليل هنا وهناك، وأواصل رحلتي، دون أن أترك أثرًا يُذكر. أتصور أن هذا سيستمر طويلًا. وأن هناك العديد من أيام الثامن عشر من نوفمبر قادمة. أعلم أنني إن انغمستُ في البحث عن الطعام في الحدائق، فسأسرق من الطيور والديدان. لكنني أقول لنفسي، إن لم أستطع إصلاح الخطأ في الوقت المناسب، إن لم تتغير الأمور أبدًا... لكنني أدرك حينها أنني بالغتُ في التفكير، لذا أتوقف عن التفكير.

T229

أحياناً أفكر في البحث عن مكان آخر للعيش فيه. أتذكر جد توماس الذي لم يغادر المنزل الذي عاش فيه مع جدته. الذي عاش هنا وحيداً سبعة عشر عاماً قبل وفاته. الذي عاش دائماً على نفس النمط، متبعاً نفس الوتيرة. الذي كان يزرع نفس الخضراوات، بنفس الكميات، وفقاً لخطة لا تزال معلقة في الحظيرة، والتي سعينا جاهدين لاتباعها.

كان ينتقل من زراعة الجزر والبقدونس إلى الذرة الحلوة والكوسا، ثم من الذرة الحلوة والكوسا إلى الفاصوليا والبازلاء، وفي العام التالي إلى الكراث والسلق، وربما الملفوف في العام الذي يليه. كان يشرح كل ذلك

لتوماس كل عام، ولاحقًا لي أيضًا عندما كنا نزوره. كيف كان وضع الأرض هذا العام وماذا يعني ذلك بالنسبة لدورة المحاصيل للعام المقبل. كيف كانت حالة التربة مع المحاصيل المختلفة. كيف كانت حالة النباتات المختلفة معًا، وعن العلاقات التكافلية بينها، وعن مدى فائدة زهور القطيفة، وكيف يفضل الشبت والشمر أن يكون لهما مساحتهما الخاصة. وكان توماس يستمع بصبر، على الرغم من أنه سمع كل ذلك مرات عديدة من قبل. ولكن بعد وفاة زوجته، اضطر سيلتر العجوز إلى تزويد الجيران والأصدقاء بالخضراوات لأن الحديقة كانت تنتج أكثر مما يحتاجه شخص واحد.

كيف يعيش هؤلاء الأزواج الذين انقسموا إلى نصفين في نفس البيوت؟ كيف يستمرون في عيش نفس الحياة عامًا بعد عام؟ في نفس الغرف، بنفس الروتين اليومي. كيف يفعلون ذلك؟ هل يستمرون في فعل نفس الأشياء لأن البيت هو نفسه؟ هل ينعزلون في غرفة واحدة؟ هل يجلسون هناك وفجأة تراودهم فكرة أنهم يسمعون الموتى يتجولون؟ هل الموتى قريبون جدًا أم بعيدون جدًا؟ هل يسمعون خطوات في البعيد أو يدًا أو كمًا يلامس ورق الحائط؟ هل يعتقدون أن هناك أشباحًا في المنزل؟ هل يعتقدون أنهم وحوش عندما يتوقف النصف الآخر عن الأكل؟ وأن بقاءهم في هذا العالم خطأ؟ هل يعتقدون أنه يجب عليهم العمل في الأرض، وأن عليهم الاستمرار في جعل الحديقة تُثمر جذورًا وثمارًا وخضراوات؟

لكنني لا أستطيع حرث الأرض. لدي يوم ممطر واحد فقط. لا أحصد شيئًا. لا أزرع شيئًا. لا شيء ينبت أو ينمو. لقد ولّت فصولي. لا شيء يثمر من أيامي. إنها تمر فحسب وأنا أتبعها وألتهم عالمي وأستمع إلى شبح في المنزل.

لا أدري إن كان هناك متسع لوحش في هذه الغرفة. لقد تباطأ اليوم، وانكمش عالمي أو ربما كبرتُ أنا، لا أدري أيهما. لم أعد أمضي يومي بخفة كما كنت أفعل، حركاتي صاخبة. الأصوات التي أُصدرها هنا ليست موسيقى، لستُ عضوًا في أوركسترا هادئة.

تملأ الأصوات التي يصدرها توماس والموسيقى القادمة من غرفة المعيشة المنزل، لكنني لستُ أعزف في الأوركسترا.

أنا لا أتبع توماس. يذهب في نزهاته عبر الغابة وعلى ضفاف النهر. يعود إلى المنزل تحت المطر بينما أكون في غرفتي، وأحياناً أرفع بصري فأرى ظلاً يفتح بوابة ويغلقها خلفه.

الليلة الماضية، انتابتني رغبة مفاجئة في الخروج. ليس لأني أردت مراقبة توماس من النافذة، فقد كان منتصف الليل وكان قد خلد إلى النوم منذ وقت طويل. كنت بحاجة للتبول لأني شربت شايًا أكثر من المعتاد، واستيقظت من حلم كنت أبحث فيه عن دورة مياه، ولكن كلما وجدت واحدة كانت مشغولة. كان الباب دائمًا مواربًا قليلًا، فكنت أظن أنها خالية، ولكن كلما دفعت الباب وجدت شخصًا جالسًا على المرحاض.

عندما استيقظت من حلمي، توجهت إلى النافذة. أردت أن أرى إن كانت السماء تمطر. لكن لا، لقد انقشعت الغيوم، تاركةً سماءً صافيةً واسعةً يظهر فيها القمر، هو نفسه كالعادة، في طور التناقص. لا يتغير أبدًا، ولم أعد أتخيل أنني أرى أي تغيير. السماء هي نفسها، تتغير خلال الليل، كما هو الحال في السماء، لكن في الليلة التالية يعود كل شيء كما هو.

فجأةً شعرت برغبةٍ في الجلوس في الخارج. أخذت بطانيةً ولحافي، ثم ذهبت إلى الحظيرة وأحضرت وسادةً من كرسي الحديقة ووضعتها على عتبة الباب الخلفي مع اللحاف والبطانية. بعد أن قضيت حاجتي خلف شجيرات عنب الثعلب في حديقة الخضراوات، جلست على العتبة وظهري إلى الباب، والبطانية واللحاف ملفوفان حولي. كانت سحابةٌ أخرى قد غطت القمر، ولكن ما إن انقشعت حتى أشرق القمر ساطعًا على لحافي في الظلام.

هدأت الرياح. كان وعاء الزرع البلاستيكي الذي كنت أسمعه يتدحرج ليلة بعد ليلة لا يزال موجودًا على الحصى بجانب المنزل، لكنه بالكاد يتحرك. لا بد أنني لم أكن بالخارج في ذلك الوقت من قبل، لأن

كان الضجيج أقل والسماء أوسع مما كانت عليه في مناسبات أخرى خرجت فيها ليلاً. ولمدة ساعة تقريباً، راقبت الغيوم وهي تنجرف، تتخللها مساحات شاسعة من السماء الصافية.

كنت أسمع أحيانًا صوت سيارة، أحيانًا قريبة، ولكن في أغلب الأحيان كان مجرد أزيز خافت في البعيد. عدا ذلك، لم تكن هناك أصوات كثيرة، باستثناء حفيف الأشجار الخفيف وصوت أصيص الزرع الخافت، الذي وجدته فجأة مزعجًا، باضطرابه المكبوت، وصوته البلاستيكي على الحصى.

مع ذلك، غفوتُ وأنا جالسٌ وظهري إلى الباب المغلق، وغطائي ملفوفٌ حولي. لا بد أنني تحركتُ في نومي، لأنني استيقظتُ فجأةً بعد أن

ارتطم رأسي بإطار الباب الحجري. كان الظلام لا يزال مخيمًا، لكنني جمعتُ أغراضي بسرعةٍ وعدتُ على أطراف أصابعي إلى سريري. وها أنا ذا الآن، أستيقظ على يومٍ قد بدأ منذ زمنٍ طويل.

233

أول ما لفت انتباهي عندما جلست في الخارج في الظلام كان الصمت. استيقظتُ مرة أخرى في منتصف الليل، وانتابتني رغبة شديدة في رؤية السماء. لكن هذه المرة شعرتُ أن هناك شيئًا مختلفًا في الحديقة. استغرق الأمر مني بعض الوقت لأفهم ما هو، ثم أدركتُ فجأة أن صوت أصيص الزرع وهو يتدحرج في الريح قد اختفى.

ثم تذكرت أنني التقطت الوعاء في طريقي إلى الحظيرة لأعيد الوسادة من كرسي الحديقة بعد زيارتي الليلية. بدا لي أنني وضعت الوعاء على رف في الحظيرة، لكنني كنت شبه نائم ولم أكن متأكدًا تمامًا، لذا نهضت لأتأكد، وبالفعل، كان هناك، موضوعًا، أو يكاد يكون ملقى، فوق صندوق يحتوي على خيوط وقفازات بستنة وأكياس بذور.

عدتُ إلى الدرجة، حيث كنت قد رتبت نفسي مجدداً بوسادة ولحاف، بالإضافة إلى سجادة قديمة تحتي لأتقي الرطوبة. أدهشني أن أصيص الزرع لم يعد ببساطة إلى حركته المعتادة في القرن الثامن عشر، يتأرجح جيئة وذهاباً على الحصى. لم يكن له أي علاقة بالأمر.

كانت تُصدر صوتًا مزعجًا من تلقاء نفسها، فلماذا تتوقف؟ أنا متأكد من أنني حملتُ تلك الإناء من قبل ووضعتها في المخزن، عندما كنتُ مع توماس، خلال أيام تحقيقاتنا، وأنا متأكد من أنها عادت إلى مكانها في اليوم التالي. لكنها الآن وافقت على أن تُنقل، وسمحت لي بمنعها من التدحرج على الحصى، وكان من الواضح تمامًا أن صوتًا ما قد اختفى.

سرعان ما يئست من محاولة إيجاد تفسير لهذا، وعدتُ إلى أنماط السماء الليلية المتوقعة. ثمة شيءٌ مطمئنٌ في السماء. إنها ليست كالكتب أو أصص النباتات، وليست كعلب الزيتون أو صناديق البسكويت. لا حيلة لي فيها، فهي جديرة بالثقة، لا تتغير أبدًا. لا أستطيع التأثير عليها ولا إفسادها. لا تسمح لي بأي تدخل، ولا تُبالي بالوحوش على الدرجات. إنها مليئة بالحركة، بالأشياء العابرة، لكن لا شيء يُصدر ضجيجًا، وحتى لو كانت هناك أصواتٌ في الأعلى، لو كانت هناك أشياءٌ مثل تناغمات الأفلاك أو الألحان السماوية، فلن تُسمع هنا أبدًا. المسافة شاسعةٌ جدًا.

حدّقتُ في النجوم وأسراب الغيوم التي شعرتُ أنني أعرف أنماطها مسبقًا. مرّت سحابةٌ منفردةٌ فوق القمر، بينما ظهرت مجموعةٌ أكبر من الغيوم فوق الأشجار على الجانب الآخر من الطريق. زوجٌ من الغيوم، سحابةٌ منفردة، سحابةٌ منفردةٌ أخرى، زوجٌ مزدوج، مجموعتان تتحركان كواحدة. شعرتُ أنني رأيتُ هذا من قبل، وفي تلك اللحظة نفسها، مرّت سحابةٌ بالقرب من القمر، الذي كان معلقًا فوق برج اتصالات في الأفق. انزلقت السحابة دون أن تلامس قمة القمر، وبينما كنتُ جالسًا في موقعي، كنتُ متأكدًا من أن حركات هذه الغيوم هي نفسها تمامًا كما في الليلة السابقة، باستثناء غياب أصيص الزرع.

للسماء نمطها الخاص، فهي تتكرر. تشعر معها بالراحة. يمكنك الجلوس على عتبة في الظلام ومراقبتها، أو يمكنك الوقوف على العشب وتشعر وكأنك وحش صغير في فضاء شاسع. أشعر وكأن السماء ترفع عباءة الوحش عن كتفي. أتقلص، وتتقلص أجزاء العالم الصغيرة التي أملكها حتى تكاد لا تُرى. السماء واسعة لا تُمس، ينفتح الكون أمامك، وتصبح وحشًا صغيرًا لا قيمة له، ينتزع لقمات صغيرة من عالم عملاق.

جلست هناك لوقت طويل، مستيقظًا ودافئًا على خطواتي. تأملت أسرابًا من الغيوم، ومجموعات صغيرة، وعناصر تائهة وحيدة. ظلال حادة أو كتل ناعمة غير منتظمة ذات حواف مهترئة، تسير منفردة أو في أزواج عبر الليل، مارة بنجوم لم أعرف أسماءها.

من الجيد أن السماء قد انفتحت. من الجيد أن العالم قد استعاد توازنه. وأنه لا يمكن إزعاجه بحشرات صغيرة تتجول في الظلام. من الجيد أن نعرف مكانًا لا يمكن فيه إنجاز أي شيء.

أحتاج أن أدرس السماء. أريد أن أتعرف عليها. أريد أسماءً وأنماطًا. من الجيد أن أعرف أنني أستطيع العودة ليلةً بعد ليلة. أنني أستطيع أن أتعرف على السماوات. أنني لا أستطيع إتلاف الآلية. من الجيد أن العالم ثابت.

234

كيف لي أن أقول إن سكون العالم أمرٌ جيد؟ كيف لي أن أقول إنه من الجيد أنه لا يتحرك، وأنه لا يوجد ما يمكنني إنجازه، وأنه لا شيء يحدث؟ كيف يكون ذلك جيدًا؟ كيف يكون من الجيد أن يُحمل توماس ببطء بعيدًا أكثر فأكثر؟ أننا لا نسافر معًا؟ كيف لي أن أقول ذلك؟ ربما عليّ أن أفكر مليًا قبل أن أكتب. أي شيء. هنا.

245

اشتريتُ اليوم تلسكوبًا. خرجتُ من المنزل عندما كان توماس خارجًا للمرة الأولى. بالطبع، لا يوجد مكان في كليرون لشراء تلسكوب. مع ذلك، ذهبتُ إلى متجر الإلكترونيات الضخم على الطريق الدائري، لكن قيل لي هناك إنه لا يوجد طلب كبير على التلسكوبات. يُمكنني شراء أجهزة تلفزيون بشاشات مسطحة، ومكبرات صوت، وأجهزة منزلية. يُمكنني شراء أجهزة كمبيوتر محمولة وهواتف محمولة وكاميرا رقمية ذات عدسة أحادية عاكسة. يُمكنني شراء خلاط أو آلة صنع الزبادي إذا رغبتُ في ذلك. يُمكنني شراء غلاية كهربائية أو موقد كهربائي، لكنني اشتريتُها منذ فترة من محل الأدوات المعدنية في المدينة.

كان من الغريب أن أتجول هناك قرب الطريق الدائري، فقد مرّ وقت طويل منذ أن ابتعدت عن المنزل أكثر من مركز المدينة والطريق المحيط بحافة الغابة. غادرت المتجر خالي الوفاض، وعلى وشك التخلي عن خطتي والعودة إلى المنزل، لكن توماس كان سيعود منذ زمن بأكياس التسوق، وسيكون من الصعب الدخول دون أن يسمعني أحد.

لذا اتجهتُ نحو المحطة. كانت السماء تمطر قليلاً، وقد فتحتُ مظلتي، وفجأةً تذكرتُ رحلتي إلى المنزل في الثامن عشر من نوفمبر. كانت الحقيبة نفسها معلقةً على كتفي، لكنها أصبحت أخف وزنًا الآن، لأنها خالية من الكتب. كنتُ قد تركتها في المنزل. وفجأةً انتابني شعورٌ بالتردد: كنتُ أبتعد. لقد تركتُ توماس والكتب في المنزل. تساءلتُ للحظات: ماذا سأجد عند عودتي؟ ولكن عندما وصلتُ إلى المحطة، لم يتبقَّ سوى أربع دقائق على موعد القطار التالي إلى ليل. أخذتُ تذكرةً من الآلة، وهرعتُ إلى الرصيف، وصعدتُ إلى القطار قبل أن أتراجع عن قراري.

كان القطار شبه فارغ. كان منتصف الصباح، ولم يكن هناك الكثير من الركاب المتجهين إلى ليل من كليرون. لم أكن قد فكرت كثيرًا في مظهري. أحيانًا، عندما أكون بالخارج، ألقي نظرة خاطفة على واجهة متجر لأتأكد من أنني أبدو كإنسان، لكنني لم أفكر قط في احتمال أن أجد نفسي فجأة جالسًا مقابل شخص ما في القطار. ليس عابر سبيل في الشارع، ولا بائعًا ينهال عليّ بالأسئلة ويتبع روتينًا معتادًا، بل شخصًا لديه متسع من الوقت. شخص جالس، يقف أمامي مباشرة، وربما وجهه موجه نحوي. فجأةً، وجدت هذا الاحتمال مخيفًا، وندمت على ركوب القطار.

لحسن الحظ، لم يكن في المقصورة التي اخترتها سوى شخصين آخرين، وكانت تتسع لنا جميعًا. جلستُ في مكان لم أرَ فيه سوى ذراع أحدهما وحقيبة الآخر، دون أي وجوه. مع ذلك، ذهبتُ إلى دورة المياه

قبل أن نصل إلى المحطة الأولى. حرصتُ على أن أبدو طبيعيًا، كإنسان عادي لا كوحش، أو كائن غريب في مهمة مشبوهة، أو زائر من مجرات أخرى، أو شخص يعيش في زمن مختلف تمامًا، ولكن لم يصعد إلى القطار سوى عدد قليل من الركاب، لذا لم يكن هناك داعٍ للقلق.

في مدينة ليل، انتابني شعور غريب بالنشوة. بعد وصولي بفترة وجيزة، وجدت متجرًا يبيع معدات مراقبة الطيور، مناظير وكتبًا وغيرها، بالإضافة إلى كاميرات وتلسكوبات من جميع الأنواع. ولأنني لم أكن أعاني من أي قيود مالية، راودتني رغبة شديدة في شراء تلسكوب متطور وكاميرا هادئة مزودة بعدسة مقربة، لكنني تمكنت من كبح جماح اندفاعي وانتهى بي الأمر بشراء تلسكوب جيد وعملي كنت قد رأيته في واجهة المتجر حتى قبل أن أسمح لنفسي، بتردد، بالدخول بعد أن فتح لي أحد الزبائن الباب.

قال البائع عندما أعربت عن رغبتي في شراء تلسكوب بسيط نسبيًا: "إنه مثالي للمبتدئين، ولكنه مع ذلك أداة من الدرجة الأولى". وأضاف أنه متين، وصفقة رابحة. لا بد أنني بدوت شخصًا عاقلًا، لكنني لم أشعر بذلك. كانت لدي رغبة شديدة في شراء المزيد من أدواتهم، وربما كنت سأمارس التصوير الفوتوغرافي أو مراقبة الطيور أو فحص الأجرام السماوية من خلال مجهر متطور لولا أن ذلك كان سيبدو لي أمرًا لافتًا للنظر. من الواضح أنني أنتمي إلى فئة مختلفة تمامًا: حكيم ومتزن، لا مندفع ولا متلهف لدراسة ظواهر العالم بأقصى دقة ممكنة.

كمكافأة على شرائي الموفق، أهداني أطلسًا فلكيًا يحتوي على مقدمة موجزة عن النجوم والكواكب التي يمكن رؤيتها من خلال تلسكوب عادي مثل الذي اشتريته. لم أذكر أنني أملك نسخة من كتاب "الأجرام السماوية" الصادر عام ١٧٦٧، فلا أظن أنه كان سيعتبره معاصرًا بما فيه الكفاية.

دفعتُ ثمن المنظار واستعددتُ لمغادرة المتجر: قمتُ بفكّه، وشرحتُ كيفية استخدامه، ثمّ طويته ووضعته في حقيبة غريبة على شكل بوق، مع حامل ثلاثي القوائم وملحقات أخرى: لم يكن الأمر أنيقًا، لكنّه كان سهل الحمل. في منتصف الطريق، توقفتُ، وأفلتُّ مقبض الباب، واستدرتُ وسألتُ البائع إن كان بإمكاني ترك المنظار في زاوية من المتجر بينما أقضي بعض المشاوير. قال البائع إنّ ذلك لا بأس به، فتركته هناك وعدتُ إلى الشارع.

قضيت الساعتين التاليتين في شراء البقالة بسرعة لم أعهدها في أيامي في المنزل. زرت سبعة أو ثمانية متاجر،

اشتريتُ أنواعًا مختلفة من القهوة والشاي، واشتريتُ كونفي البط، وعلب سمك، وعبوات جبن بتواريخ صلاحية طويلة، وبعض أنواع الجبن الحرفي المعتق جيدًا، والتي، بحسب بائع الجبن، يمكن حفظها جيدًا خارج الثلاجة. من متجر للأغذية الصحية، اشتريتُ تشكيلة من معجون الخضار المعلب والمرطبان. اشتريتُ لوزًا، ومكسرات أخرى، وبذورًا. اشتريتُ علبًا كرتونية وعلبًا من الفاصوليا والبازلاء والذرة الحلوة، ومع كل عملية شراء شعرتُ بالارتياح للتأثير الطفيف الذي أحدثته في مخزونات الغذاء العالمية: لم تترك غاراتي أي أثر يُذكر على المتاجر.

اشتريتُ من متجر أدوات مكتبية دفترًا ذا غلاف مقوى، مُجلّدًا بقماش أخضر زيتوني. صفحاته مسطّرة، وظهره مخيط. لم أستخدمه بعد، لكنني أشعر أنني أسير نحو شيء جديد لم يبدأ بعد.

بعد أن انتهيت، سحبت أكبر قدر ممكن من النقود من بطاقتي الائتمانية، وأوقفت سيارة أجرة، ووضعت مشترياتي فيها، وطلبت من السائق أن يوصلني إلى المتجر الذي تركت فيه تلسكوبي. أخذته، ووضعته في صندوق السيارة، وطلبت من السائق أن يوصلني إلى كليرون: رحلة تستغرق أكثر من ساعة بقليل في طقس متقلب بين الشمس والسماء الرمادية وبعض زخات المطر. وصلنا إلى المنزل قبل موعد عودة توماس بوقت كافٍ، بينما كان الجو لا يزال جافًا وقبل حلول الظلام.

عند عودتي إلى المنزل، دفعت أجرة التاكسي، ثم حملت حقائبي إلى الردهة، ومنها إلى غرفتي. كان المنزل بارداً، فقد انطفأت جمرات الموقد كالعادة، ولم يقم أحد بتشغيل التدفئة. رفعت درجة حرارة منظم الحرارة قليلاً عن المعتاد لأنني شعرت فجأة بالبرد.

وجدتُ تحت السرير صندوقين بلاستيكيين للتخزين يحتويان على ملاءات إضافية، فأخرجتهما ووضعتهما على الرف السفلي لخزانة الكتب بجانب السرير. وضعتُ أكبر قدر ممكن من مشترياتي في الصندوقين البلاستيكيين، والباقي في صندوق من الكرتون وجدته في سقيفة الحديقة، ثم أعدتُ كل شيء إلى مكانه تحت السرير.

بدأ الظلام يحلّ بينما كنت أطوي آخر أكياس التسوق الفارغة، وعندما اشتدّ المطر لجأت إلى غرفتي. من النافذة، رأيت جارنا يهرع متجاوزًا السياج في أسفل الحديقة.

بعد ذلك بوقت قصير سمعت توماس يصل إلى المنزل، وبعد لحظة تسلل ضوء القاعة من تحت بابي.

لقد كان يومًا حافلاً، وأنا متعب، لكنه تعب غريب ممزوج بنشاط. عقلي يدور. يبدو أنني غيرت سرعتي واتجاهي، بل وحجمي أيضًا. لقد استعدت تناسبي الطبيعي. لست متأكدًا إن كان ذلك بسبب قضائي ليالي في تأمل السماء، أو لأنني سافرت بعيدًا، وركبت القطار، وسرت في شوارع غريبة. ربما ببساطة لأنني وزعت مشترياتي واكتفيت بأخذ لقمات صغيرة من هذا العالم الشاسع. لا آخذ الكثير من هذا العالم، أقول لنفسي، ليس إذا أخذنا حجمه، وأشعر وكأنني أصبحت أخف وزنًا وأكثر رشاقة. أستطيع تغيير اتجاهي. هكذا هو حجم هذا الوحش. هكذا هو تأثيري الضئيل على العالم. هكذا هي أهمية تصرفات شخص واحد في الثامن عشر من نوفمبر.

246

وصلت مشترياتي. عندما استيقظت هذا الصباح، كانت لا تزال في مكانها: الصناديق تحت السرير ممتلئة، وعلب الشاي والقهوة مكدسة على الطاولة خلف غلاية الماء الكهربائية، ومؤونتي قد امتلأت. أشعر بالهدوء والراحة. العالم لا يزال موجودًا، أقول لنفسي، ولا يكاد يوجد أي أثر لوجود حشرة صغيرة تنهب.

الشيء الوحيد الذي اختفى هو دفتري الأخضر. تركته على الطاولة، جاهزًا لتدوين الجمل والملاحظات والتأملات. للجمل الشافية، والجمل المتقطعة، للشك والريبة، للأسئلة والمخاوف، للأمل والمشاعر، للألوان، لأي شيء. كان من المفترض أن يُؤذن ببداية فصل جديد. بداية حياة كائن صغير في هذا الكون. الآن لا أعرف إن كان شيء جديد قد بدأ أو سيبدأ، لكنني أعرف أنني بحاجة إلى إلقاء نظرة فاحصة على السماء.

251#

في الليالي القليلة الماضية، كنت أخرج بتلسكوبي في وقت متأخر من الليل، عندما يكون هناك أكبر امتداد للسماء للمراقبة. الجو بارد ورطب، لكن

توجد فترات كافية من صفاء السماء بحيث يصبح معظمها مرئياً في وقت ما خلال ساعة أو ساعتين.

أخرجتُ فستانًا صوفيًا من الدرج السفلي لخزانة الملابس في غرفة النوم، فالجو بارد في الخارج. أخرجتُ أوشحة وجوارب صوفية. أخلد إلى الفراش باكرًا في المساء، وأنام لبضع ساعات، ثم أستيقظ لاحقًا في الليل. أنتظر حتى أتأكد من هدوء الغرفة التي فوقي، ثم أستعد للخروج.

بهدوء تام أو شبه تام. ومعي تلسكوبي، وفستاني الصوفي، وستراتي، وبطانية واحدة تُدفئني بينما أدرس سماء الثامن عشر من نوفمبر.

#256

لقد اكتشفتُ طرقًا جديدةً لقضاء يومي. أنام متأخرًا ولا أستيقظ إلا بعد خروج توماس. أجلس في غرفة المعيشة أو أبقى في غرفتي. أفتح العلب والأكياس. آخذ المكسرات والكراميل من الصناديق تحت سريري. أتمنى لو أستطيع دعوة توماس للانضمام إليّ، لكن عليّ إخباره عن كل هذا خلال ٢٥٦ يومًا، وسيستغرق الأمر وقتًا طويلًا.

أخلد إلى النوم مبكرًا في المساء، لأكون مستعدًا لليل، ولكن قبل ذلك، أستعد للقاء السماء. أفتح أطلسي الفلكي وأتأمل النجوم والكواكب. على رفوف الكتب في غرفة المعيشة، وجدتُ خريطة سيلتر القديمة. يمكن تدويرها لتتبع تغير الفصول، بحيث يمكنك دائمًا العثور على الجزء الذي تريده من السماء. كنتُ أعلم بوجودها، وفي اليوم التالي لزيارتي إلى ليل، أحضرتها من على الرف. ضبطتها على منتصف نوفمبر، واستغرق الأمر يومين حتى استقرت على الخريطة، ولكن الآن لم تعد تعود إلى وضعها السابق أثناء الليل. قبل ذلك، كانت تعود باستمرار إلى سماء الربيع. لا بد أن تلك كانت آخر مرة شاهدتها فيها. ربما لم تُستخدم الخريطة منذ أن نظرنا أنا وتوماس إلى إحدى كوكبات الربيع عندما زرنا جد توماس. لا أذكر لماذا أخرج سيلتر العجوز خريطته الفلكية، أو ما أردنا رؤيته في السماء، لكنني أتذكر أنه كان يدير القرص لنتمكن من رؤية النجوم وتحديدها. شعرتُ وكأنني في حياة أخرى، وكأنها سماء مختلفة تمامًا، سماء تتغير مع مرور العام. لكن القرص الدوار ليس ضروريًا الآن، كل ما أحتاجه هو سماء الخريف.

259

بدأت أشعر وكأنني في بيتي حين أخرج ليلاً. أنظر إلى السماء فأشعر أن هذا هو موطني. على عشبٍ رطب في الثامن عشر من نوفمبر. تحت أقمارٍ ونجومٍ وكواكب. أعيش تحت قمرٍ أرضي ذي منظرٍ طبيعي رمادي مائل للبياض، شاسعٍ وكثيفٍ مليءٍ بالفوهات ومواقع الهبوط. أعيش تحت زحل بحلقته الخافتة، كضبابٍ يحيط به. تحت المشتري بكل أقماره. أستطيع رؤية ثلاثة منها عبر التلسكوب: آيو، أوروبا، وجانيميد. كاليستو مختبئٌ خلف المشتري، فلا أراه، والأقمار الأصغر أصغر من أن يراها تلسكوبي. لكنني أرصد أجرامًا سماوية أخرى، نجومًا من جميع الأحجام، أرصد كوكباتٍ صغيرة كثيفة وأضواءً منفردة عظيمة. أجد كاستور وبولوكس. أتحرك تحت الجبار. لقد اكتشفت شهب الأسديات. لقد حددتُ النقطة في السماء التي تنطلق منها خطوطها

الصغيرة الساطعة. إنها تتكرر باستمرار، ويمكن الاعتماد عليها، ويمكنني الوقوف على العشب، وضبط التلسكوب، ومشاهدتها وهي تتحرك بهدوء شديد عبر العدسة. أعيش تحت الثريا، عالياً في السماء، وأنا صغير جداً، وأميل للخلف، وأضبط التلسكوب، وأديره مع تحرك السحب في السماء.

أبقى خارجًا حتى وقت متأخر، أشعر وكأنني في بيتي، أنظر جنوبًا وشمالًا وشرقًا وغربًا. أتنفس تحت سماء مرصعة بالنجوم، أرصد الكواكب والنجوم، أركز نظري. ثم أعود إلى المنزل وأخلد إلى فراشي. أتنفس في منزل تحت سماء مرصعة بالنجوم، أنام ثم أستيقظ على أصوات المنزل وأقول لنفسي إن وقت السماء سيعود قريبًا.

كل ليلة، بعد أن أرى ما يكفي من النجوم والكواكب، أحمل تلسكوبي وبطانيتي بحرص إلى داخل المنزل وأضعهما في غرفتي. أغلق باب الحديقة وأقفله بنقرة خفيفة. ثم أدخل إلى الغرفة الإضافية وأغلق الباب.

وقفتُ على العشب وتأملتُ السماء، لكنني أعود دائمًا. إلى منزلٍ يرقد فيه توماس، وأنا صامتٌ خشيةَ أن يُوقظ نومه، أو أن أُزعجه، فأتحرك بحذر. توماس هو من يسكن هنا، وأنا ضيف.

خلال النهار، أتبع الأصوات. لقد وضع توماس نمطًا في منزله. كان هذا النمط قائمًا بالفعل عندما عدتُ من باريس. ربما حتى قبل ذلك، أقول لنفسي. إنه نمطه، وليس لي مكان فيه. كانت أيامنا معًا بمثابة اقتحام لنمطه، لكنني لم أعد أقتحمه. أنصت وأتأقلم. أسمع صوت الماء في الأنابيب، وصوت الغلاية على الموقد. أعرف صوت المطر، وأصوات المطبخ وغرفة المعيشة. بالنسبة لتوماس، هذا مجرد يوم، يقع بين يومين آخرين، لكن بالنسبة لي، يومه البسيط العادي هو نمط. يفعل أشياءً ويأخذ استراحات، إما أن يكون في الداخل أو الخارج، إما أن يكون صوتًا أو صمتًا. أنسجم مع إطاره. هو لا يعلم ذلك، لكنني أنصت وأجد طريقي خلال يومه، وفي الليل أرتدي ملابس مناسبة للنجوم. أرتدي الصوف، وأرتدي الفرو. أرتدي ملابس مناسبة للظلام، وأقف على العشب وأتأمل السماء، وبمجرد أن أخرج، أعود إلى الداخل، وأغلق الباب، وأستلقي في سرير أصبح باردًا. لكن لا بأس، أدخل إلى السرير وأنا أرتدي ملابسي كاملة وأسحب اللحاف حولي.

أستلقي في غرفة الضيوف، لأني ضيف. أستلقي في السرير لأني نائم. لقد حدقت في السماء وشعرت بالراحة تحت النجوم. أتعرف على

سماء الليل. هل أنا خروف يحدق في النجوم أم وحش صغير يرتدي الصوف؟

274

كان التلسكوب خطأً. أو بالأحرى، كان خطأً لو ظننت أنه قادر على تصغير الوحوش.

لقد كنتُ في الخارج كل ليلة. أشعر وكأنني في بيتي. أسكن الظلام، وقد وقفتُ هناك معتقدًا أنني سأصغر حجمًا أمام عظمة السماء، لكن الأمور لا تسير هكذا. ليس مع التلسكوب. تصبح لديك عيونٌ جائعةٌ متوحشة، تقتحم، تغزو. تتدخل في شؤون السماء، وأستطيع أن أقول إنه كلما ازددتُ معرفةً بسماء الليل، وكلما تعرفتُ على المزيد من النجوم، وكلما رأيتُ المزيد من سطح القمر، كلما كبرتُ. أغزو الفضاء، أملأ العالم. هذه طريقة أخرى لأكون وحشًا. في الظلام. في الحديقة. بعيونٍ نهمة. وحشٌ يرتدي الصوف.

أشعر بذلك حين أدخل المنزل بعد ليلة قضيتها على العشب. لم تعد السماء تُشعرني وكأنني وحش صغير. أشعر وكأن الغرفة الإضافية تضيق عليّ، كما هو الحال مع الملابس التي لم تعد تناسبني. معطف الشتاء الذي كان صغيرًا عليّ قبل حلول الربيع. أفكر في أختي التي سترث معطفي، في بطانته البالية، وفي ضيقه على كتفيّ.

لكنني استمررت في النمو في ذلك المعطف، فأصبحت أكمامه قصيرة جدًا، وبدأت بطانته تتلف، فساعدتني أختي في توسيع الثقوب، لأنه لو بقي سليمًا في الربيع، لكانت ستخزنه حتى الخريف وتورثه لها. أرادت معطفًا جديدًا، لا معطفي القديم. لذا تعاونّا، وعملنا عليه بجد، نسحب قليلًا هنا، ونزيل قليلًا هناك، وبحلول الربيع كان المعطف مليئًا بالثقوب لدرجة أنه لم يعد صالحًا للتوريث. في الخريف، حصلنا كلانا على معطفين جديدين. كانا أزرقين، وكان معطفي أكبر. كانت أكمامه طويلة قليلًا، ولكن بحلول الشتاء أصبح معطفي مناسبًا لي.

أعيش الآن في غرفة في منزل ضيق للغاية، لقد كدتُ أن أتجاوزها، وأحياناً أتجول في المدينة بحثاً عن منزل جديد.

276

توجد منازل فارغة في كليرون. بعضها معروض للإيجار، وبعضها الآخر للبيع، وبعضها فارغ فقط لأن سكانها ليسوا في منازلهم في الثامن عشر من نوفمبر.

لا أدري ما الفائدة المرجوة، لكنني بدأتُ أتفحص هذه البيوت عن كثب. أحياناً أتجول في الشوارع في منتصف الليل، أو أسير حاملاً

مظلتي عند الغسق لأرى إن كانت هناك أضواء مضاءة فيها. ثم أكرر الأمر لاحقاً في المساء. أتسلل من المنزل وأتجول، فأجد بعض البيوت المظلمة لا تزال كذلك. دخلتُ حدائق وبحثتُ عن مفاتيح في الأكواخ، أو تحت فانوس على عتبة الباب، أو في أصيص زهور عند الباب الخلفي. أحياناً يحالفني الحظ. دخلتُ بيوتاً غريبة في منتصف الليل، لكنني لم أجد بيتاً أسكن فيه.

T279

اليوم زرتُ وكيل العقارات في شارع شارلمان. خرجتُ فور مغادرة توماس المنزل للمرة الأولى. توجهتُ أولًا إلى وكيل العقارات في ساحة مينيوليه. استفسرتُ عن بعض المنازل التي رأيتها خلال تجوالي الليلي، وكان اثنان منها معروضين للبيع، لكن موقع أيٍّ منهما لم يكن مناسبًا تمامًا. في مكتب وكيل العقارات في شارع شارلمان، وجدتُ منازل أخرى وطلبتُ أن يُريني أحدهم، لكن لم يكن لدى الوكيل وقتٌ في ذلك الوقت. اقترح أن نرتب موعدًا للمعاينة في اليوم التالي، لكن عندما قلتُ إن ذلك غير ممكن بالنسبة لي، اقترح أن أستعير مفتاح المنزل إذا أردتُ التجول فيه بمفردي. وافقتُ. أُعطيتُ المفتاح، وخرجتُ تحت المطر، وسرعان ما وجدتُ المنزل، الذي كان يقع في شارع إرميتاج، أحد الطرق المؤدية إلى الغابة والنهر وطاحونة المياه القديمة، ليس الطريق الذي يسلكه توماس في نزهته، بل على بُعد بضعة شوارع من مساره.

كان مبنى رمادي اللون مطليًا بالجص. كان فيه حمام ومطبخ مجهز بثلاجة وموقد وغلاية كهربائية، وغرفة معيشة في الطابق الأرضي وغرف نوم في الطابق العلوي، مع طاولات وأسرّة وكل شيء. كان من الواضح أنه مهجور منذ مدة. كان باب الثلاجة مفتوحًا لحمايتها من العفن، وكانت الأسرّة خالية، لكن بخلاف ذلك، كان فيه كل ما أحتاجه. تجولت في المنزل لمدة ربع ساعة تقريبًا. كل ما عليّ إحضاره هو ملاءات سريري وحقيبتي وكتبي وملابسي. والتلسكوب. ويمكنني الانتقال إليه. لن يكون الأمر صعبًا.

في طريق العودة، مررتُ بمتجر أقفال ونسختُ المفتاح الاحتياطي. قلتُ لنفسي: سيكون الأمر صعبًا، فبعد أن رأيتُ كم سيكون الانتقال إلى المنزل الفارغ سهلًا، سيكون من الصعب عليّ الابتعاد عن توماس، حتى وإن لم يبقَ لي سوى صوته.

بعد إعادة المفتاح، عدتُ إلى المنزل في شارع إرميتاج. كان مفتاحي مناسبًا. دخلتُ وجلستُ في غرفة المعيشة، التي كانت تفوح منها رائحة عفن خفيفة. كان التدفئة مطفأة، لذا لم تعمل المشعات، لكن الكهرباء

كانت متوفرة، وكان بإمكاني شراء مدفأة كهربائية. بدأ المطر بالهطول بينما كنتُ جالسًا هناك. كان صوت المطر مختلفًا عن صوته في منزلنا، ربما كان شيئًا ما

لا أدري إن كان ذلك مرتبطًا بميل السقف أو اتجاه الرياح، لكن الصوت أصبح أقل حدة، ربما أكثر رقة. كان منتصف النهار، ولاحظتُ توقف المطر. كان المطبخ يُطل على الحقول، وعلى الجانب الآخر من المنزل فناء صغير باهت. لم أرَ الجيران، وكان المنزل منعزلًا بحيث يصعب عليهم ملاحظتي لو سكنتُ فيه.

#281

زرتُ أمس وكيلة عقارات أخرى. كان لديها متسع من الوقت لتُعرّفني على منزل كنتُ أرغب في معاينته، واقترحت عليّ أيضاً منزلين آخرين يُمكنني زيارتهما فوراً. في أحد المنزلين، كان المفتاح تحت أصيص زهور. كان هذا المنزل أفضل من المنزل الواقع في شارع إرميتاج. لم تكن رائحته كريهة، لكن الجيران كانوا قريبين جداً، وكانت غرفة معيشتهم تُطل على المطبخ. سيبدأون بالتساؤل عما إذا كان أحد قد سكن فيه. لم أكن أرغب في التساؤل.

في منزل آخر، أحضر وكيل العقارات المفتاح من خطاف في سقيفة مليئة بالحطب. فكرتُ: "يمكنني إشعال نار هنا، والجلوس في غرفة المعيشة مع كتاب، لكن سرعان ما سينفد الحطب، شيئًا فشيئًا سأراه يختفي، سأرى الوقت يمر والوحش يلتهم عالمه". في النهاية، استقر رأيي على المنزل الرمادي في شارع إرميتاج. اشتريتُ مدفأة وملأتُ حقيبة تسوق بالمؤن من صناديقي تحت السرير. وضعتُ التلسكوب في علبته، وجمعتُ أكوام أوراقي المتفرقة ووضعتها في حافظة كرتونية سوداء وجدتها في المكتب. أخذتُ ملابس بينما كان توماس بالخارج، وأخذتُ ملاءات السرير التي كنتُ قد وضعتها على الرف السفلي لخزانة الكتب في غرفة الضيوف، ووضعتُ كومة كتبي وبعض الكتب الأخرى من رفوف غرفة المعيشة في حقيبتي وحملتُها جميعًا إلى منزلي الجديد. ثم عدتُ إلى غرفتي.

كنتُ في حيرة من أمري. جلستُ في غرفة الضيوف وشعرتُ بالشك يتسلل إليّ، وفي عدة مرات من تلك الليلة كنتُ على وشك النهوض وفتح الباب المؤدي إلى الردهة، وطرق باب غرفة المعيشة وإخبار توماس بكل شيء، وربما حتى اقتراح أن نسافر معًا، لكنني لم أتجاوز مجرد التفكير فيما إذا كان عليّ طرق باب غرفة المعيشة.

قبل الدخول أم لا. لا أعرف لماذا شعرتُ أنه يجب عليّ أن أطرق أولاً. هل تطرق الوحوش الأبواب أم تقتحمها مباشرةً؟ وكأن زيارة وحش مهذب أقل رعباً.

T288

أجلس في المنزل الرمادي في شارع إرميتاج، وقد انتهيتُ لتوي من قراءة كتاب قديم عن البستنة وجدته في صندوق كتب في العلية. لن يفيدني فصل حدائق المطبخ كثيرًا في هذا المطبخ، إذ لا يُمكن البستنة في الثامن عشر من نوفمبر، وهذا المنزل لا يملك حديقة أصلًا. لا توجد صفوف من الكراث أو السلق، ولا بصل في صناديق في سقيفة الحديقة، ولا توجد خطط للبذور أو تناوب المحاصيل. لستُ بحاجة للتفكير في أننا في نوفمبر أو أن فصولي قد ولّت. لستُ بحاجة للتفكير في كوني ضيفًا، فليس هناك أحد في هذا المنزل. لا أسمع وقع أقدام على الدرج أو عبورًا للأرضيات وأنا أجلس بهدوء على طاولة المطبخ. لا أسمع يدًا أو كمًا يلامس جدارًا. لا أسمع غلايات على المواقد. عندما أفتح الثلاجة، يُغلق الباب بهدوء من تلقاء نفسه، والصوت الوحيد المتدفق في الأنابيب هو ما أُحدثه بنفسي.

أنا وحدي. أنا وحدي وأنا بأمان. بأمان من تدفق المياه الغزير، من حفيفها وخشخشتها، من ارتطام أبواب الثلاجة بأسطح العمل، من الدخول والخروج، من قرقعتها وسحقها، من فتحها وإغلاقها وصوتها. لستُ بأمان من المطر. أستطيع سماعه على السطح، وعندما يشتد، أراه على نافذة المطبخ. يُخفي المشهد خارج النافذة، لكنه يعود. نفس اليوم، نفس الطقس، نفس المطر. لكنني تخلصتُ من الرائحة الكريهة. أزلتُ بعض العفن من ورق الجدران في الزوايا، ونظفتُ الثلاجة، لأنه كان هناك القليل من العفن فيها رغم أن بابها كان مفتوحًا، وغسلتُ أرضية المطبخ. عندما يبرد الجو في المنزل، أشغل المدفأة، وإذا لم يكن ذلك كافيًا، أشغل الفرن. أو أخبز الخبز أو أطهو أطباقًا يمكن تركها لتنضج بهدوء على الموقد. إذن، هناك بعض الصوت في النهاية.

T298

ألاحظ ذلك أكثر في الصباح. أحياناً أشعر وكأنني أستيقظ على يوم مختلف تماماً. أظن أنه سبتمبر. يظهر في ضوء النافذة أو في نسمة هواء عند فتح بابي. نسمة عليلة تتلاشى بعد ثوانٍ. لمحات خاطفة، تظهر وتختفي، كما لو أن هناك ثغرات في يومي، كما لو أن هناك زمناً آخر يجري تحت أيامي، عام عادي يطل من الأسفل. أبحث عن تلك الثغرات، أذهب إلى المدينة فأجد سبتمبر، أستنشق الهواء ككلب. يظهر للحظة ثم يختفي.

317#

بدأتُ أضع الخطط. أضعها في الغابة. ليس في فناء المنزل الخلفي ليلاً، ولا مع منظاري في الظلام، ولا في الشوارع وأنا أتجول حاملاً مظلتي وحقيبتي على كتفي، متسائلاً إن كنت أبدو كوحش أم كإنسان. بل بين الأشجار، على دروب الغابة وفي الفسحات المغطاة بأوراق صفراء أو بنية. عدتُ لأحضر حذائي الشتوي بينما كان توماس بالخارج. كانا مخبأين في خزانة في الردهة، والآن أذهب في نزهات في الغابة. لا أتبع طريق توماس ولا أصادفه. يكاد مساري يتقاطع مع مساره، لكن قبل أن أصل إليه، أنحرف في اتجاه آخر. لستُ مستعداً لمقابلته. أستدير وأعود من حيث أتيت. الدروب موحلة. أنزلق وأزحف على الأوراق، وحيث لا توجد أوراق أشعر برطوبة الأرض. إنها تلتصق بنعال حذائي الشتوي، وتلتصق بي، وأضطر إلى رفع قدمي أثناء المشي.

يسلك توماس دروبًا أخرى. يسلك دروبًا مغطاة بالحجارة أو الحصى، أما أنا فأرتدي ملابس مناسبة للطرق الترابية المتراكمة عليها الأوراق، فأبتعد عن النهر وطاحونة الماء القديمة، وأتجه نحو وسط الغابة. إنه نوفمبر، لكن في أعماق الغابة لا تزال بعض الأوراق على الأشجار، وأظن أننا في سبتمبر أو ربما أكتوبر. تبدو الغابة وكأنها قد انفتحت. ثمة شيء ما تحت عباءة نوفمبر، والغابة تجذبني إليها وكأنها ترغب في بقائي. تلتصق بنعليّ، تريد أن تخبرني عن سبتمبر وأكتوبر، لكنني أواصل السير، فأنا أعلم أنه نوفمبر.

أخرج في أوقات مختلفة من اليوم. قد تمطر قليلاً أو تتسلل أشعة الشمس من بين الأشجار. في فترة ما بعد الظهر، أتجول على أطراف الغابة، بجانب الحقول. أستعد. أضع خططي على الممرات وتحت المطر، وبعد أن أنتهي من جولتي في الغابة، أعود إلى المنزل في شارع إرميتاج. أحياناً أعود مبتلاً من المطر، وأحياناً أشعر بالبرد فقط، لكنني أحمل المدفأة إلى المطبخ وأغلق الباب، وأشغلها، وأغلي الماء في غلايتي، وأشغل الفرن المزود بشواية في الأعلى، وأحمص بعض الخبز تحت شعلته الحمراء المتوهجة، وقبل أن أدرك ذلك، يكون المطبخ دافئاً وينتهي اليوم.

339

اقترب مني ماشياً. توماس. لم يرني إلا عندما كاد أن يمسك بي. كنتُ مجرد شخص جالس على مقعد، ثم تحولتُ إلى تارا، أمامه مباشرةً.

جلستُ على المقعد بجوار الجدار الحجري على حافة الغابة. كانت هناك سيارتان في موقف السيارات على بُعدٍ ما، لكن لم يكن هناك أحدٌ

في الأفق، إلى أن جاء توماس يمشي على الطريق. رأيته من بين الأشجار، يمشي، لا يحمل رسائل ولا طرودًا، فقط حقيبته على كتفه.

لم يكن يتوقع أن يقابلني في الغابة. ظن أنني في باريس. اقترب مني، لوّحت له، فتوقف فجأة، وقد فوجئ.

لذا أخبرته بكل شيء. سألته إن كان يرغب بالجلوس بجانبي على المقعد، أم يفضل التنزه في الغابة؟ قال إنه يفضل التنزه في الغابة، فانطلقنا نسير جنبًا إلى جنب، بينما كنت أروي له مرة أخرى قصة الثامن عشر من نوفمبر، القصة كاملة هذه المرة، مع الأشباح والوحوش، مع التلسكوبات ووكلاء العقارات، ومنزل رمادي اللون بثلاجة لا تصطدم بزوايا أسطح العمل بل تتأرجح وتغلق من تلقاء نفسها، مع أحذية شتوية وطين يلتصق بها أثناء المشي.

تجنبنا المسارات الأكثر رطوبة. مشينا على الحصى والحجارة، واتبعنا مساره وصولاً إلى طاحونة المياه القديمة على ضفاف النهر. اتبعنا المسارات على طول الضفاف، وعدنا إلى موقف السيارات قبل وقت قصير من...

أظلمت السماء. أصررتُ على أن يأتي معي. كان مترددًا. كنت قد أخبرته عن المنزل في شارع إرميتاج، لكنني لم أخبره عن خططي.

فتحتُ الباب. كان ضيفي، مع أن المنزل كان مُستأجراً فقط. أعددتُ القهوة وقدمتها في أكواب زجاجية لأنني لم أكن أملك سوى كوب واحد، لكن كان هناك الكثير من الأكواب في الخزانة، فسكبتُ القهوة لنا وجلسنا في المطبخ نستمع إلى صوت المطر. أدخلته إلى المنزل حتى لا يتبلل بالمطر. اشتريتُ شوكولاتة بنكهة البرتقال، ليس من أحد المتاجر الكبرى المعتادة، بل من متجر شوكولاتة صغير بالقرب من قرية مينوليه.

قلتُ إن الخطة هي العودة إلى باريس. أردتُ أن أُكمل رحلتي. أردتُ أن أصل إلى الثامن عشر من نوفمبر، حين يحلّ من جديد بعد عام. أردتُه أن يأتي معي. كنتُ بحاجة إلى مساعدة. إلى سند، إلى طوق نجاة، إلى مرسى. إلى شخصٍ يتمسك بي. كان لديّ 339 يومًا. كنتُ على وشك إتمام عام. هل كنتُ متأكدة؟ نعم، كنتُ متأكدة. أو شبه متأكدة. قلتُ: عندما أُكمل 365 يومًا، يكون العام قد انقضى لأنه لم يكن عامًا كبيسًا. لقد تأكدتُ من ذلك.

أخبرته كيف كنتُ أعي وجود زمن آخر تحت أيام نوفمبر، عامٌ فيه سبتمبر وأكتوبر. كان العالم مساميًا، فيه ثغرات، عام آخر تحته. خطرت لي هذه الفكرة من قبل، لكنني لم أشعر بها حقًا إلا الآن، منذ

انتقالي إلى المنزل في شارع إرميتاج. تيقنتُ من ذلك خلال نزهاتي في الغابة. كان الثامن عشر من نوفمبر جديدًا على الأبواب، وكان لا بد أن يكون هذا هو المخرج: أن أقفز إلى الثامن عشر من نوفمبر عندما يحين موعده، أن أتمسك به، أن أركب زمنًا مألوفًا. يمكننا أن نجد الطريق معًا. علينا أن نحاول إيجاد الباب المؤدي إلى الخروج من الثامن عشر من نوفمبر. علينا أن نعود إلى حيث بدأ كل شيء. هل سيأتي معي؟ يمكن أن يكون مرساتي، شريان حياتي، مرساتي. يمكننا أن نقيم في فندق دو ليسون كما اعتدنا، يمكننا أن نستيقظ ونتناول الإفطار في الفندق. يمكننا أن نشهد قطعة الخبز وهي تطفو. ربما لو أمسكنا بها قبل أن تسقط. يمكننا إصلاح ما حدث اليوم. يمكننا إعادة الكتب إلى رفوفها. يمكننا زيارة فيليب وماري، ويمكننا الجلوس حول المنضدة في المتجر. ستكون العملة السسترتيوسية هناك في علبتها الشفافة. كنت متأكدًا من ذلك. سخان الغاز

سيكونون هناك في الغرفة الخلفية، مغطين بالغبار. سيجلس فيليب وماري على المنضدة. يمكننا تعويض ما تبقى من اليوم.

لكن توماس تردد. كيف لنا أن نعرف ما يجب فعله؟ قلتُ إن هناك خيارات كثيرة، وسنجد الخيار المناسب. سنجد معًا مخرجًا. شرحتُ له سيناريوهات مختلفة. يمكننا أن نعيد تمثيل يوم 18 نوفمبر الأول معًا، ويمكننا أن ننهي اليوم في المتجر مع فيليب وماري. يمكننا إحضار مدفأة الغاز من الغرفة الخلفية، ويمكننا إشعالها، ويمكنني أن أحرق يدي. يمكننا تكرار كل شيء، قلتُ، لكنه لم يكن متأكدًا، ما فائدة تكرار يوم يتكرر على أي حال؟

أو يمكننا فعل العكس، قلتُ. شيء آخر. انعكاس. تناقض تام. بإمكانه أن يُعيد تمثيل يومي. ربما كان هذا هو الحل. ربما كان هو الحلقة المفقودة. بإمكاني أن أُطلعه على كل التفاصيل. سيكون ذلك سهلاً. سيُسبب إصابة طفيفة، لكنها ستكون سريعة. عندما ترتفع درجة الحرارة في الورشة، سيتعين عليه النهوض ودفع المدفأة الغازية بقوة، واضعاً يده على المعدن المُحمرّ في الزاوية العلوية للمدفأة. سينتهي الأمر في ثانية. لن يشعر بشيء تقريباً. هناك أوعية وماء بارد في الورشة. ستكون هناك ضمادات ومراهم مضادة حيوية له. ستكون هناك مكعبات ثلج في الفندق. سأكون هناك للمساعدة، لا داعي للقلق.

رأيته يتفقد المطبخ، ثم تحرك على كرسيه بقلق وألقى نظرة خاطفة على الباب المؤدي إلى الردهة. كان يبحث عن مخرج.

أو، تابعتُ سريعًا، يمكننا إيجاد طرق أخرى مختلفة تمامًا لقضاء اليوم. أما اختيار أحد الخيارين أو الآخر، فهو أمرٌ يُمكننا البتّ فيه حين نصل

إلى هناك. لكنني كنتُ متأكدةً من ضرورة الانتظار حتى نهاية العام، حتى حلول الثامن عشر من نوفمبر. لقد شعرتُ وكأن العام يتنهد من خلال شقوق الثامن عشر من نوفمبر. أصررتُ: ربما لو تأمل في مشاعره، لشعر بأكتوبر. سيحلّ نوفمبر قريبًا، وعندما نقترب من الثامن عشر، سننطلق.

نظر إليّ. استطعت أن أدرك أنه يعتقد أنني مجنونة، وغير جديرة بالثقة، وغير مستقرة نفسيًا. ألقى نظرة سريعة على المطبخ. بدا عليه التعب، وفجأة...

أدركتُ الرائحة العفنة التي ظننتُ أنني تخلصتُ منها. نظرتُ إلى أكوابنا الفارغة، إلى حلقات السائل الداكن التي تشكلت في قاعها، وشعرتُ ببرودة الجو، على الرغم من أنني شغّلتُ المدفأة عندما دخلنا.

شعر توماس أنه يجب أن أعود معه إلى منزلنا. كان جائعًا للغاية. دفعتُ ما تبقى من الشوكولاتة عبر الطاولة، لكنه لم يمسها. انتظرنا حتى توقف المطر، ثم أطفأنا المدفأة وخرجنا. في طريقنا، مررنا بمطعم بيتزا ودخلنا لنشتري بيتزا للعشاء، وبعد لحظة من التردد، قررنا شراء نوعين مختلفين لأننا لم نستطع حسم أمرنا.

لقد حسبت بسرعة التأثير الذي كان سيحدث على العالم لو أننا عشنا بهذه الطريقة في الثامن عشر من نوفمبر منذ عودتي من باريس: 676 علبة بيتزا، 676 بيتزا، لكنني لم أقل شيئًا، وبينما كنت أنتظر البيتزا، ذهب توماس إلى متجر نبيذ في نهاية الشارع واشترى زجاجتين من النبيذ، واحدة بيضاء وواحدة حمراء، لأنه لم يستطع أن يقرر.

استطعتُ أن أُدرك ذلك من وجهه. كان مرتبكًا. ربما كان مُحقًا: ربما كنتُ أنا المُصاب بالجنون. لكنه خلط بين السبب والنتيجة. لم أكن مجنونًا لدرجة أن أتخيّل أنني عشتُ يوم الثامن عشر من نوفمبر 339 مرة - لقد أُصبتُ بالجنون من جراء عيشي يوم الثامن عشر من نوفمبر 339 مرة. لقد جعلني يوم الثامن عشر من نوفمبر غريب الأطوار. أردتُ الخروج من هذا الوضع. أردتُ منه أن يُساعدني، لكنني كنتُ أعرف مُسبقًا أن هذه أمنية لن تتحقق. كنتُ أُدرك ذلك. لقد كان عالقًا في نمطه الخاص، ولم يكن هناك أي عون يُمكن الحصول عليه من هذا الجانب.

كان يفضل ألا يصدقني، لكن ذلك لم يكن خيارًا متاحًا. بينما كنا ننطلق إلى الغابة، استطعت أن أخبره أن سيارة ستدخل موقف السيارات خلفنا بعد لحظات؛ كنت أستطيع أن أتنبأ بموعد ظهور الشمس ونمط المطر بدقة. كان عليه أن يصدقني. لكنه ربما كان محقًا في أنني أصبحت غير موثوقة. لقد فقدت حسّي بالحكمة. لم أعد قادرة على

الحفاظ على رباطة جأشي. هذا الأمر أقلقه. كان كل ما يريده هو أن تنتهي الأمسية ويستيقظ على عالم طبيعي. لكن ذلك لم يكن خيارًا متاحًا أيضًا.

قضينا الأمسية في كراسينا المريحة مع البيتزا والنبيذ الأحمر. من الواضح أنه لم يكن يرغب في الذهاب إلى باريس. لم يكن يريد أن يكون جزءًا من خططي. لم يعتقد أن ذلك سيُجدي نفعًا. شعر أنه يجب علينا الانتظار، وأن أبقى في المنزل معه. قال: "حتى الغد". كان يقصد التاسع عشر. قلت: "لكن غدًا سيكون الثامن عشر". لم يكن متأكدًا. شعر أنه يجب علينا أن نعيش كل يوم بيومه. قال: "هناك دائمًا احتمال أن نستيقظ على التاسع عشر من نوفمبر". قال: "عاجلاً أم آجلاً، لا بد أن يعود الزمن إلى مساره الطبيعي". ربما فجأة. حتى غدًا. ربما يُصلح الزمن نفسه: سنذهب إلى الفراش، وننام، ومن يدري، ربما نستيقظ باسم تي. وتي. سيلتر في منزل في كليرون سو بوا. في التاسع عشر.

كنتُ أتمنى أن يقول هذا. لكن الآن بدا الأمر خاطئًا تمامًا. كأنه يقول هذا فقط ليتجنب المجيء معي، لا لأنه جالسٌ على كرسي مريح مع بيتزا وشعور بالأمل يريد مشاركته معي. مع أن هذا ربما كان توقعًا مبالغًا فيه. ربما كان عليّ ألا أقترح عليه أن يحرق يده. لكنني أعلم أن هذا ليس ما حدث. كان سيرفض على أي حال. لقد أعطيته عذرًا فحسب. سببًا لعدم الذهاب. مددت له يد العون.

أصررتُ على وضع الخطط. لكنه رأى أن علينا الانتظار. قال: "لا يمكنكِ التخطيط لكل شيء. أحيانًا عليكِ فقط أن تكوني مستعدة. عيشي كل يوم بيومه، وكوني متيقظة. سيظهر شيء ما. فرصة. مخرج. أو ربما من الأفضل لي أن أذهب إلى باريس وحدي،" قال. "عيناي الثاقبتان سترشداني إلى الطريق. لو تجولتُ في نهاية العام. بموهبتكِ،" قال. "بعينكِ الخبيرة بالتفاصيل."

قال هذا لأنه لم يرغب في الذهاب معي. أراد أن يبقى على نهجه. كنت أعرف ذلك، وكان يعرفه أيضاً، ولم يكن هناك سبب لمعارضته.

اعتقد توماس أنه يجب علينا الذهاب إلى الفراش، وأن نترك احتمالات الليل مفتوحة. لم أعترض، ولكن في وقت لاحق من تلك الليلة، بعد أن نام، تسللتُ من غرفة النوم. نزلتُ الدرج وسرتُ في الردهة، وارتديتُ حذائي الشتوي وربطتُه. أخذتُ معطفي من علاقته، وارتديته، وفتحتُ الباب برفق. ولكن بينما كنتُ في طريقي للخروج، سمعتُ توماس على الدرج. قال إنه يعرف إلى أين أنا ذاهبة. أومأتُ برأسي في الظلام، وأغلقتُ الباب خلفي، وعدتُ أدراجي عبر الشوارع.

كانت السماء ملبدة بالغيوم تقريبًا، لكنها بدأت تتلاشى وتتحرك باتجاه الشمال الشرقي بينما كنت أسير عائدًا إلى منزلي في شارع إرميتاج. كان هناك ضوء مضاء في نافذة المطبخ لأننا نسينا إطفاءه عند مغادرتنا، وكان الباب مفتوحًا. كان المنزل باردًا لأننا تذكرنا إطفاء التدفئة. كانت أكوابنا على الطاولة، فأزلتها، وبقايا الشوكولاتة التي تناولتها بعد أن أحضرت أوراقي وجلست إلى الطاولة.

ما زلتُ أرتدي حذائي، لكنني علّقتُ معطفي على ظهر الكرسي. ما زالت لديّ خطط. خططٌ من نوعٍ ما. مع أنني لا أعرف إن كان يُمكن تسميتها خططًا بعد الآن. إنها فضفاضةٌ ومفتوحة. ما لديّ هو سيناريوهات واحتمالات، وليست خططًا حقيقية. أتخيّل مخرجًا من الثامن عشر من نوفمبر. لا أعرف كيف سيبدو هذا المخرج، لكنني أعرف أن توماس لن يأتي معي.

340

يومٌ من أيام أكتوبر، هكذا فكرتُ حين استيقظت. وقتٌ متأخرٌ من بعد الظهر، لكنني كنتُ قد استرحتُ. كنتُ مستلقيًا على السرير، بكامل ملابسي، ولم أخلع سوى حذائي ومعطفي. كان حذائي مُلقىً على الأرض، وتسلل ضوء الشمس من النافذة لبرهة قبل أن تُغطي غيمةٌ الشمس. وبعد لحظة، انقشعت الغيمة وملأ ضوء الشمس الغرفة. نهضتُ، وأخذتُ حذائي ونزلتُ به إلى الطابق السفلي. تركتُه في الردهة وفتحتُ الباب على الفناء، حيثُ أشرقت الشمس على البلاط من رقعةٍ من سماء أكتوبر الزرقاء، ولكن بعد فترةٍ وجيزة، حين بدأ الجو يُشبه نوفمبر من جديد، عدتُ إلى الداخل، وأغلقتُ الباب وجلستُ إلى الطاولة. أوراقي مُلقاةٌ أمامي، ومعطفي لا يزال مُعلقًا على ظهر الكرسي؛ الجو باردٌ هنا، لكنني شغّلتُ المدفأة وحسبتُ أنه لا بد أن يكون الثالث والعشرين من أكتوبر. لا بد أن هذا ما أشعر به. أشعة الشمس هي شمس أكتوبر، حتى وإن كانت لمحاتٍ خاطفة.

348

أشعر بالقلق. أحسب الأيام، وقد كتبتُ الرقم 348 في دفتري. أحسب أيام نوفمبر، ولكن إذا دققتُ النظر، أستطيع أن ألمح بصيص أمل أخير.

من شهر أكتوبر.

أستعد لمغادرة هذا المكان. أحزم أمتعتي. بالأمس، بينما كان توماس خارج المنزل، حملتُ آخر الأغراض إلى بيتنا: كتابان، وبعض أدوات المطبخ، وفرشاة أحذية، ومرطبان ملمع أحذية استعرته. أعدتُ حذائي الشتوي إلى الخزانة حيث وجدته. أخذتُ بعض الأوراق من الرف في

غرفة الضيوف ووضعتها في حقيبتي مع أقلام رصاص وقلم حبر. وكأنني أريد أن أروي شيئًا.

انتهيتُ من ترتيب آخر الأشياء في غرفة الضيوف وكنتُ على وشك مغادرة المنزل عندما تذكرتُ أنني سأحتاج إلى هاتفي. بحثتُ في الغرفة ووجدته أخيرًا. كان قد سقط على الأرض وكان ملقىً في الغبار تحت السرير. كان معطلاً تمامًا بالطبع، لكنني وضعته في حقيبتي، وخرجت، وأغلقت الباب، ووضعت المفتاح في الجيب الأمامي لحقيبتي.

شعرتُ وكأنها لحظة وداع. كنتُ ضيفًا، والمفتاح الذي في حقيبتي كان مُعارًا. كان عليّ إعادته، لكنني ذهبتُ إلى المدينة لفحص هاتفي. اتضح أن هناك مشكلة في شريحة SIM أو بطاقة الذاكرة أو شيء من هذا القبيل، وأن الهاتف نفسه يحتاج إلى شحن، لكنه عاد للعمل سريعًا. اشتريتُ شاحنًا جديدًا لأنني لا أعرف ما حدث للقديم، والآن أعتقد أنني مستعد للمغادرة. جهزتُ جواز سفري، وأخرجتُ ملابسي، وجمعتُ كتبي الصغيرة من يومي السابع عشر والثامن عشر من نوفمبر ووضعتها على الطاولة. وضعتُ جميع أوراقي في المجلد الكرتوني الأسود، ولديّ دفتر ملاحظاتي الذي يحتوي على الخطوط والأرقام التي تُشير إلى الأيام. كل شيء الآن بجانبي في المطبخ في شارع إرميتاج، وأنا أستعد للانطلاق. أريد الخروج من الثامن عشر من نوفمبر. أتمنى أن أجد طريقة، وهذه الفكرة تُقلقني.

349

أشعر بذلك الآن: عامٌ يمرّ تحت ثامن عشر نوفمبر. لا أستطيع التفكير فيه بطريقة أخرى. أنا أُغلق دائرة. أنا في طريقي للخروج من عام نوفمبر. أنا أنتقل إلى عام آخر. زمن آخر.

غادرتُ هذا الصباح المنزل في شارع إرميتاج، وأغلقتُ الباب، وتركتُ المفتاح تحت أصيص نبات في الفناء. مشيتُ إلى محطة القطار، وركبتُ قطارًا إلى ليل، ومن هناك سافرتُ إلى باريس، وها أنا ذا أجلس في غرفتي في فندق دو ليسون. إنه وقت الظهيرة. إنها المدينة نفسها، والغرفة نفسها، ومع ذلك فهي شيء مختلف. إنه عامٌ يوشك على الانتهاء. هذا هو مصيري، نهايةٌ مليئةٌ بالثغرات والعيوب. أنا في طريقي.

عندما دخلتُ فندق دو ليسون، رفعت موظفة الاستقبال نظرها عن شاشة حاسوبها ومدّت يدها لأخذ مفتاح الغرفة رقم ١٦ وكأن شيئًا لم يكن. أخذتُ المفتاح وصعدتُ الدرج إلى غرفة الفندق التي غادرتها قبل عام تقريبًا. كان السرير مُرتبًا، وبعض أغراضي مُلقاة على غطائه: علبة صغيرة من النعناع وقلم أخضر داكن عليه شعار "صالون لوميير

السابع"، كنت قد أحضرته من المزاد في السابع عشر من نوفمبر، ولا بد أنني نسيته.

لم يكن في الغرفة ما يوحي بالدفء والراحة. مألوفة، نعم، لكنها ليست دافئة. لا أعرف إن كان لي بيت. لم يعد بيتي هو ذلك المنزل في كليرون، حيث يتبع توماس روتينه المعتاد، حيث ربما علّق معطفه المبلل في الردهة ويصعد وينزل الدرج ويتنقل بين الطوابق. بيتي ليس تلك الغرفة المطلة على شجرة التفاح وكومة الحطب. بيتي ليس ذلك المنزل الرمادي في شارع إرميتاج. أنا غريب هنا. أعيش في الثامن عشر من نوفمبر. انتقلتُ إلى يوم من أيام نوفمبر، لكنني الآن أريد الخروج. لا أريد البقاء هنا بعد الآن. أستعد للقفز من الثامن عشر من نوفمبر.

أجلس على الطاولة في غرفتي، وأمضغ حلوى النعناع التي تعود إلى السابع عشر من نوفمبر، من زمن كانت فيه الأيام تتوالى واحدةً تلو الأخرى: السادس عشر، السابع عشر، الثامن عشر، التاسع عشر.

أحاول أن أربط الوقت، لأصل إلى التاسع عشر. أكتب بقلم أخضر وأفكر في التاسع عشر من نوفمبر: اقتربي يا التاسع عشر، ادخلي.

350

في وقت متأخر من عصر أمس، مررتُ أمام متجر فيليب موريل. كانت الأنوار مضاءة، ورأيتُ أن ماري كانت وحدها. مشيتُ جيئةً وذهابًا على الرصيف المقابل للشارع مرتين قبل أن أعبر الطريق، وتوقفتُ أمام النافذة وألقيتُ نظرةً خاطفةً على المتجر. على المنضدة، كانت هناك ثلاث عملات معدنية، كلٌّ منها معروضة في علبة شفافة. كانت الساعة الرابعة وعشرين دقيقة. لم أكن أعرف متى سيعود فيليب بالضبط، كل ما أعرفه أنه سيكون قبل الخامسة. ترددتُ للحظة، ثم نزلتُ الدرجات القليلة المؤدية إلى المتجر، وفتحتُ الباب ودخلتُ. اقتربت مني ماري من الطرف الآخر للمتجر دون أن تُبدي أي علامة على معرفتي بها. ألقيتُ عليها التحية وطلبتُ رؤية العملات المعروضة. أرتني إياها، وأخبرتني بلطفٍ شيئًا عن كلٍّ منها. شعرت على الفور أن العملة التي في المنتصف هي التي أثارت اهتمامي أكثر، وأخبرتني أنها عملة رومانية من فئة السسترتيوس تُصوِّر الإمبراطور أنطونيوس بيوس. أومأتُ برأسي، والتقطتُ العلبة، ورأيتُ عملة تُشبه إلى حدٍّ كبير تلك التي أعطيتها لتوماس. أو بالأحرى: كانت هي العملة نفسها. لا جدوى من التظاهر بالشك. كانت عملتي السسترتيوس، وقد عادت إلى مكانها على المنضدة. بجانب السسترتيوس، على أحد وجهيها، كانت هناك عملة فضية تحمل صور كاستور وبولوكس، وعلى الوجه الآخر دينار نحاسي عليه صورة منارة الإسكندرية. كانت هي نفسها العملات التي

وُضعت على المنضدة في الثامن عشر من نوفمبر، ولم يساورني أدنى شك في أن السسترتيوس هي العملة التي اشتريتها.

ترددتُ. فكرتُ للحظات في محاولة الوصول إلى الغرفة الخلفية، لأتفقد الغبار على أسطوانة الغاز الزرقاء، لكن لم يكن لديّ متسع من الوقت، وانتابني فجأة شعورٌ بأنه يجب عليّ أن أتوخى الحذر الشديد في الثامن عشر من نوفمبر إذا أردتُ أي أمل في النجاة. خشيتُ أن أُفسد يومي، ولذا، وبطريقةٍ فجائيةٍ وربما فظّةٍ بعض الشيء، شكرتُ ماري وخرجتُ مسرعًا من المتجر. صعدتُ الدرج، وعبرتُ الطريق، ودخلتُ متجرًا صغيرًا للبقالة، حيثُ أخذتُ سلةً ودخلتُ إلى ممرٍّ قبل أن يأتي فيليب ماشيًا في الشارع. توقف عند نافذة متجره، ولوّح لماري، ثم نزل الدرج.

بعد دقيقة، عندما غادرتُ متجر البقالة، كانت الساعة تشير إلى الخامسة إلا ربع. ألقيتُ نظرةً خاطفةً حولي ثم ابتعدتُ بخطى سريعة، ملاصقًا للجدار، وعبرتُ الطريق عائدًا، وتابعتُ سيري في شارع ألماجيست. كان من الواضح أن هذا هو نفس الثامن عشر من نوفمبر الذي كانت فيه آخر مرةٍ لي هنا. خارج متجرٍ في نهاية الشارع، رأيتُ كلبًا بنيًا داكنًا ينتظر صاحبه. كنتُ متأكدًا من أنني رأيتُ صاحبته تخرج من متجرٍ وتأخذ كلبها قبل وصولي إلى متجر فيليب بقليل في الثامن عشر من نوفمبر الأول، وبالفعل: بعد لحظات، خرجت صاحبته من المتجر حاملةً حقيبة تسوق مميزة بلون الفيروز، وفكّت رباط الكلب من درابزينٍ قرب باب المتجر.

كان الظلام يخيّم على الشوارع المحيطة بشارع ألماجيست. اتبعت شارع رينارت حتى وصلت إلى الساحة الصغيرة في نهاية الشارع، وبعد خروجي من ممر السيرك، عبرت شارع شاميناد وجلست في مقهى قريب، في شارع رينيت.

هذه شوارع أعرفها منذ سنوات. منذ حياتي قبل توماس، لأنني عشت هنا لمدة عام عندما كنت طالبًا. لم أتعرف على توماس إلا بعد عامين، ثم على فيليب لاحقًا، عن طريق أصدقاء مشتركين كانوا يسكنون في شقة في ممر السيرك. انتقلوا من هناك منذ زمن بعيد، لكن الشوارع والحدائق التي أعرفها جيدًا ما زالت موجودة، ومتجر فيليب هنا، وفندق ليسون هنا، وكذلك المتاجر التي اعتدت ارتيادها وزملائنا في مكتبات الكتب القديمة. هذه أماكن لطالما زرتها، بمفردي أو مع توماس، لكنها الآن عالم مألوف في زمن توقف فيه الزمن. أتوق إلى عالم يمر فيه الزمن. عالم يكون فيه الثامن عشر من نوفمبر يومًا كأي يوم آخر، يومًا يمكن نسيانه.

بعد قليل، عندما غادرت المقهى عائدًا إلى الفندق، مررتُ بمكتبة لبيع الكتب القديمة لم أزرها من قبل. سقط ضوء النافذة على رفوف الكتب الموضوعة على الرصيف. كانت هناك أغطية بلاستيكية رمادية اللون مطوية فوق الكتب، جاهزة لتغطيتها في حال هطول المطر. لكن ذلك لم يكن ضروريًا. كان بإمكاني إخبار العاملين في المتجر أن بإمكانهم إعادة الأغطية البلاستيكية إلى الداخل، لأن المطر لن يهطل إلا في وقت متأخر من تلك الليلة، وحينها سيكون المتجر قد أغلق أبوابه منذ زمن والكتب محفوظة بأمان في الداخل.

توقفتُ للحظة، لكنني لم أدخل. بدلاً من ذلك، عدتُ سيراً على الأقدام إلى فندقي، حيث ذهبتُ إلى الفراش، وها أنا أستيقظ الآن مجدداً على نفس اليوم، الثامن عشر من نوفمبر. تناولتُ فطوري، وجلستُ مع جريدتي المعتادة، ورأيتُ قطعة خبز تسقط، ثم رأيتُ من يلتقطها بهدوء، كرواسون على طبق، وكل ذلك مألوفٌ للغاية.

354

كيف لي أن أخرج من هذا المأزق في الثامن عشر من نوفمبر؟ كيف دخلتُه؟ هل دخلتُ من الباب الخطأ؟ باب التكرار؟ لا أدري. أبحث عن مخارج. أعني، إذا استطعتَ الدخول، فلا بد أن تستطيع الخروج. هكذا أفكّر. كيف تفتح بابًا لا يُفتح؟ هل تركله؟ هل تكسره؟ هل تُضرم فيه النار؟ هل تستعين بصانع أقفال؟ هل تتمنى؟ هل تستخدم رموزًا سرية؟ هل تستخدم كلمات سحرية؟ لا يسعني إلا أن أشعر أن عليّ فعل شيء ما. أن شيئًا ما قابل للتغيير. أن عليّ تصحيح خطأ. أن عليّ إيجاد اللحظة المناسبة، ثم التصرّف.

لكنني لم أعد متأكدًا. أسير في الشوارع، وفجأةً يبدو الثامن عشر من نوفمبر هشًا للغاية، مليئًا بالأبواب التي يُمكن اقتحامها بسهولة. أتجوّل في متجر الخزف الخاص بهذا اليوم. خزف. زجاج. كريستال. من الأرض إلى السقف. أستطيع أن أتحرك خلال اليوم كالثور، كالفراشة. ماذا أفعل؟ هل أقتحم يومي أم أطير بخفة حول العالم؟ هل أنا فراشة تُحدث إعصارًا برفرفة جناحيها؟ أم ثور يندفع نحو الجدران ليهدمها؟ لا أعرف. أجوب شوارعي، وأظن أن فعل شيء ما سهل. أن أتصرف سهل. أن أقتحم الأبواب. لكن ماذا لو لم يكن عليّ اقتحام الأبواب؟ ماذا لو كان عليّ أن أطرق بابًا برفق؟ لكن أي باب؟

355

لا بدّ من وجود فرقٍ يُمكن التمسّك به. لا بدّ من وجود اختلاف. تغيير. لكن كيف يبدو هذا الفرق؟ لا أعرف. لكن إن كنتُ أعرف يومي، إن

كنتُ أعرف شوارعي، فلا بدّ أن يكون بإمكاني أن أرى إن كان هناك شيءٌ ما.

يحدث شيء جديد.

لم أعد أشعر بأن عليّ فعل شيء ما في الثامن عشر من نوفمبر، أو أن عليّ تجميع أحجية، أو تدوير مقبض، أو القيام بفعل ما. لم يعد لديّ شعور بأنني بحاجة إلى الانخراط في أحداث اليوم أو تغيير ترتيب الأشياء المتعلقة بالثامن عشر من نوفمبر.

لديّ شعورٌ بأنّ هناك شيئًا ما يجب أن أراه، وأنّ شيئًا جديدًا سيظهر مع نهاية العام. وأنّ شقوقًا دقيقة قد بدأت بالظهور بالفعل. أتخيّل تغييرًا في تلك الشوارع المألوفة، وأنّ في كلّ تكرارٍ اختلافًا وتنوّعًا.

لكن ما الذي يُشكّل اختلافًا؟ هل هو صوت؟ رائحة؟ هل هو لون أم شكل؟ هل هو أخضر أم أزرق؟ ما مدى ضآلة اختلافي؟ هل هو حادثة، فعل؟ هل سيحدث شيء غير متوقع فجأة؟ شيء ملحوظ أو استثنائي؟ هل سيكون شيئًا طبيعيًا تمامًا وشائعًا؟ أم سيكون شيئًا لا يحدث؟ شيء مفقود؟ اختفاء؟

أتخيل يوم 18 نوفمبر جديدًا، لكنني لا أعرف كيف سيختلف عن سابقه. لديّ شعور بأن الطقس سيكون مختلفًا. لكن هل سيكون أدفأ أم أبرد؟ هل ستهطل أمطار مفاجئة؟ أتخيل استراحة، تغييرًا. لكن كيف سيحدث هذا التغيير؟ هل سيحدث عندما لا أتوقعه، أم سيتطلب مني اليقظة والتركيز؟ هل سأضطر إلى الإصغاء إليه، هل سأضطر إلى شمّه أو لمسه أو رؤيته؟ لا أعرف. أبحث عن التفاصيل. أنا متيقظ ومستعد.

أنتظر، وأهيئ نفسي للحظة التي ستأتي، وحتى ذلك الحين: الصبر، الصبر، الصبر.

من الصعب التحلي بالصبر عندما لا تعرف ما الذي تنتظره. من الصعب ملاحظة أي فرق بين الأحداث الكثيرة التي تقع خلال اليوم.

أينما ذهبت، أجد الأمور على حالها. نفس المحلات التجارية ونفس الزبائن. نفس صناديق القمامة الممتلئة عند مدخل الحديقة قرب شارع رينارت، حيث توجد ثلاث أغلفة وعلبة بيتزا مكتوب عليها باللون الأحمر.

سقطت من العلبة واستقرت تحت مقعد. توجد نفس أنواع الجبن في متجر الجبن الواقع على بُعد خطوات قليلة في الشارع، حيث تدور لافتتان على الجبن كما لو كانتا راقصتي باليه في منتصف دورة كاملة

على مسرحيهما. هناك باب أخضر مغطى برسومات جرافيتي بلون أزرق باهت غريب، تقف عنده امرأة واضعةً قدمها في المدخل، وعيناها تمسحان الشارع، بينما تحاول امرأة أخرى تحمل أكياس تسوق في كلتا يديها الإشارة إلى قدومها: ترفع يدها، لكن الكيس ثقيل جدًا، فتكتفي بتحريكه قليلًا.

هناك أناس يرتدون معاطف وأحذية. هناك رجل يعبر الشارع، يُخرج هاتفه. هناك أبواب تُفتح وأضواء تُطفأ. هناك امرأة أسقطت نقودها المعدنية المتناثرة على الرصيف؛ تتراقص العملات حولها للحظة ثم تستقر، فتلتقطها واحدة تلو الأخرى. أنا أقف على الجانب الآخر من الشارع، كانت هي هناك بالأمس وهي هناك اليوم. لكن ما المختلف، إن كانت هي اختلافي؟ هل هو النظرة في عينيها، أم عدد العملات المتناثرة على الشارع، هل أصبح عددها الآن سبعة بدلًا من خمسة؟ كيف لي أن أميز بينهما؟ هل هي أضواء الشوارع، التي تُضاء في وقت مختلف؟ كيف لي أن أعرف؟ هل سيكون ذلك قبل خمس دقائق أم بعد دقيقتين؟

أحتاج أن أعرف محيطي جيداً لأرى متى تتغير الإشارة. أجوب شوارعي. أنا متيقظ، أقرأ ما يحدث في الشوارع وأحفظه في ذاكرتي.

361#

أشعر بالراحة وسط صخب الشوارع وضجيجها. أعرف شوارعي جيدًا. لطالما نظرتُ إلى نوافذ المباني، وإلى الرصيف، وقرأتُ الصحف في المقاهي، وراقبتُ الناس يدخلون ويخرجون، وكل يوم أرى نفس الأشخاص ونفس الصحف. مررتُ أمام متجر "موريل نوميسماتيك". رأيتُ ماري تضع لافتة في الشارع عند الافتتاح، ورأيتُ فيليب يُطفئ الأنوار في المتجر. رأيتُه يُغلق الباب، وتبعته إلى مقهى حيثُ التقى ماري في تمام الساعة الثامنة والربع. راقبتُهما من بعيد. لن أزعجهما. لن أُفسد يومهما.

سمعتُ أصوات سيارات الإسعاف والسيارات العادية، وجرس دراجة هوائية جعل اثنين من المارة يقفزان فزعًا. مشيتُ على طول ممرات الحصى في الحديقة الصغيرة قرب شارع رينارت، على أرصفة الصباح المبتلة بالمطر، وفي شوارع ما بعد الظهر الجافة. سمعتُ صناديق إعادة تدوير الزجاج تُفرغ في الصباح، وشاحنات صغيرة ترجع للخلف في أزقة ضيقة. رأيتُ شاحنة تتوقف لتوصيل كراسي مكتبية، ورجلين يسحبانها عبر الرصيف إلى داخل مبنى، كرسيًا تلو الآخر، اثنين في كل مرة، وأحيانًا ثلاثة، جميعها سوداء اللون، مزودة بعجلات ومغطاة بالبلاستيك، سبعة وأربعون كرسيًا في المجموع. لقد أحصيتها.

362

هذا عالمٌ أعرفه وأنا مستعدٌ له. مستعدٌ للقفز. مستعدٌ لاغتنام فرصة التغيير المفاجئ. أو مستعدٌ للغوص، كما أظن. لماذا يجب أن يكون الأمر قفزة؟ ربما عليّ أن أستعد لحبس أنفاسي.

أنا متردد. أجلس في الغرفة رقم ١٦، أفكر في أنني لا أعرف إن كنت سأقفز أم أغوص. في لحظة أسير بحذر خلال اليوم، مستعداً للقفز، وفي اللحظة التالية أتنفس بعمق، مستعداً للغوص.

365

استيقظتُ قبل بزوغ الفجر. كانت الشوارع لا تزال مبتلة عندما خرجتُ إلى عتمة الصباح. كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بقليل عندما غادرتُ الفندق، وكان المطر قد توقف للتو.

أبقى في حالة تأهب قصوى منذ لحظة استيقاظي. يستيقظ وعيي، وتتضاعف حواسي، ويهتز جهازي العصبي. أعلم أنني لم أصل إلى تلك المرحلة بعد، ليس تمامًا. يبدو كل شيء كأي يوم أعرفه، لكنني لا أستطيع منع نفسي من البحث عن أي تغييرات مفاجئة.

لو كان الوقت يمر، لكان اليوم هو السابع عشر من نوفمبر، أي قبل يوم من الثامن عشر. غدًا سيكون الثامن عشر من نوفمبر مجددًا، لأن عامًا قد مر. أم لا؟ هل حسبتُ بشكل صحيح؟ أراجع جميع حساباتي. لا، إنها ليست سنة كبيسة. أخرجتُ دفتري من حقيبتي. حسبتُ ضرباتي وأيامي، والنتيجة هي

دائماً نفس الشيء: هذا هو اليوم الأخير من سنتي، وغداً هو الثامن عشر من نوفمبر.

أنا مستعد. أبحث عن دلائل تُشير إلى أن هذا يومٌ مختلف، لكن كل ما أجده هو تكرارٌ لما حدث، لذا عليّ الانتظار حتى الغد. مع ذلك، أنا متيقظ. متوترٌ وحذر. متأهب. أبحث عن تغييرٍ أستطيع التمسك به، عن اختلاف، عن تحول. إنه المساء. أجلس في الغرفة رقم ١٦. ربما أستيقظ على شيءٍ مختلف. إن نمت.

366

حلمتُ أنني أسبح، وعندما استيقظتُ قلتُ لنفسي إن كل شيء سيتضح. يمكنني أن أسبح وأطفو في يومي، كل ما عليّ فعله هو السباحة. أو أن أنجرف، كما فكرتُ، مثل قطعة الخبز الطافية، التي تحوم في الهواء قبل أن تسقط.

تناولتُ الفطور. كنتُ أسبح وأطفو. نهضتُ، وأخذتُ بعض الطعام من البوفيه، ثم جلستُ مجدداً. تنفستُ بعمق. أرخَيتُ كتفيّ. كنتُ في الماء، شعرتُ بخفةٍ وانزلقتُ بسلاسة. أو ربما كان هواءً وكنتُ أطفو برفق، كشريحة خبز خفيفة، في يومي.

مهما حدث، فكرتُ في نفسي، سأعرف حين يحدث. حين يحين الوقت. سأضطر إلى التيه، والبقاء في مكاني. خرجتُ إلى يومي. نفس اليوم، لكنه بدا هادئًا. مفتوحًا، مليئًا بالإمكانيات، حافلًا بالتفاصيل والأحداث والحركات التي قد تتغير في أي لحظة.

كان أمامي يوم واحد، فمضيت فيه. لم تكن هناك خطة. كان هناك خطٌّ عام، أستطيع اتباعه بانسيابية وهدوء. لم يكن هناك هدف، ولا فريسة أصطادها. لم أكن طائرًا جارحًا محلقًا، ولا نسرًا، ولا قرشًا، ولا قطًا كبيرًا على وشك الانقضاض. لم أكن متيقظًا. كان هذا شيئًا آخر. كنت في رحلة. في طريقي إلى المنزل، هكذا فكرت. كنت أسافر بتذكرة مفتوحة، بلا مسار محدد. تجولت في تفاصيل الشوارع، في عالم مليء بالأحداث الصغيرة، ومجموعة من الأشياء والوقائع والأحاسيس، كلها متراصة في ذاكرتي.

أشياء كثيرة، ألوان كثيرة. لافتات كثيرة، متاجر كثيرة، أناس كثيرون، سلع كثيرة في المتاجر، مقابض كثيرة على أبواب كثيرة، أحذية كثيرة تسير في الشوارع، معاطف كثيرة، تطريز كثير في أحذية كثيرة، في ملابس كثيرة، حجارة كثيرة على أرصفة كثيرة، تفاصيل كثيرة، دوامة من الأشياء، تفاصيل صغيرة على هذه الأشياء، كل هذه الأشياء جمعتها من شوارع الثامن عشر من نوفمبر، طبقة فوق طبقة، كثيرة لدرجة أن عقلي اضطر إلى حشرها معًا، لكنني انزلقت عبر كل ذلك بسهولة غير معتادة ووجدت نفسي أفكر كم هو غريب أن يتمكن المرء من الطفو بخفة عبر عالم مضغوط كهذا.

لا بدّ أن يكون هناك اختلافٌ ما وسط هذا الكمّ الهائل من التفاصيل، هكذا فكّرت. شيءٌ أتمسّك به. لو كان هناك يومٌ آخر من أيام 18 نوفمبر في يومي، لتسلّل عبر الشقوق. سأرى الاختلافات، سأقترب، وأتمسّك بها، وأصعد على متنها، وأطفو معها.

تجولتُ في أماكن أعرفها، أماكن زرتها في عيد ميلادي الثامن عشر من نوفمبر، ثم عدتُ إليها مرارًا وتكرارًا. مررتُ بمكتبتي الكتب القديمة حيث اقتنيتُ نسخًا من كتابي "تاريخ المياه الصالحة للشرب" و"الأجرام السماوية"، لكنني لم أتوقف إلا للحظات أمام نوافذهما. مررتُ بمتجر فيليب، وكانت ماري هناك كعادتها. رأيتها من الشارع وتابعتُ سيري. تحركتُ بهذه السهولة طوال يومٍ بدا لي كغيره، لكنني

كنتُ مستعدًا، فاليوم سينفتح، وسأغادره من نفس الممرات المائية التي جذبتني إليه، من نفس التيارات، تيارات المحيط، وتيارات الهواء. سبحتُ، وانجرفتُ، وانتظرتُ.

وفجأة، ناداني صوت. بصوت عالٍ. نادى باسمي. تارا. ثم كررها. بصوت أعلى.

استدرتُ باتجاه الصوت. كان يقصدني أنا. فيليب. استدرتُ فجاء نحوي مبتسماً.

كان سعيدًا برؤيتي. لم يكن لديه أدنى فكرة عن وجودي في المدينة. هل كان توماس معي؟ وهل لديّ وقت للعودة معه إلى المتجر؟ كان ذاهبًا إلى هناك الآن. في الواقع، كان لديه بعض المشاوير، لكنها يمكن أن تنتظر. قال إن هناك شخصًا يرغب في أن أقابله، صديقته ماري. لقد مرّ وقت طويل منذ أن تحدث معي. كيف حال توماس؟ سيأتي هو وماري إلى كليرون سو بوا قريبًا. لقد كانا

في الحقيقة، لم نتحدث عن الأمر إلا قبل أيام قليلة. قال بينما كنت أسير بجانبه: "لقد حدث الكثير". كنت مرتبكة، لأن هذا لم يكن احتمالًا واردًا في حساباتي. لم يكن لقاء فيليب في الشارع من بين السيناريوهات التي خطرت ببالي. لم أتحقق مما فعله بعد الظهر قبل أن نلتقي في المتجر، ولم يخطر ببالي أبدًا أن أفعل ذلك.

قال إنه كان قد أتى لتوه من البنك، حيث كان لديه اجتماع. كان هو وماري يرغبان في شراء الشقة في الطابق الثالث فوق متجره. توفيت السيدة العجوز التي كانت تملكها قبل شهرين، ويريد ورثتها بيعها. لم تكن الشقة في حالة جيدة، أو بالأحرى: كانت مكتظة بالأشياء. كانت المالكة هاوية جمع، ولكن ليس بالمعنى المعتاد للكلمة، بل هاوية جمع متطرفة، بل مُكتنزة.

وصلنا إلى المتجر، وبينما كنا ننزل الدرج رأيت ماري واقفة عند المنضدة، وهي ترتب بعض العملات المعدنية على صينية عرض.

عرّفني فيليب على ماري، وقال إن لديهما الآن خبرين سارين: لقد جئت لرؤيتهما، وقد وافق البنك على شراء الشقة. تبادلنا أنا وماري أطراف الحديث حول مواضيع شتى، من بينها توماس وكليرون سو بوا، بينما خرج فيليب مسرعًا لشراء زجاجة نبيذ. قالت ماري وهي تعيد صينيتها إلى خزانة العرض في الغرفة المجاورة: "من الأفضل أن يكون نبيذًا فوارًا، لأن لدينا ما نحتفل به".

عاد فيليب ومعه زجاجة شمبانيا ووضعها في الثلاجة، وبينما كان يُغلق باب المتجر ويُعلّق لافتةً في النافذة، ذهبتُ أنا وماري عبر الغرفة

الخلفية إلى الدرج الخلفي ثم إلى ردهة الدرج المُظلمة. واجهنا صعوبةً في العثور على مفتاح الإضاءة هناك، لكن فيليب كان خلفنا مباشرةً. كان يحمل معطف ماري معه، خشية أن تشعر بالبرد، وبينما كان يُناولها إياه، تمكنتُ من تحديد مكان المفتاح وتشغيل الضوء. صعدنا الدرج إلى الباب الموجود في الطابق الثالث، وهو باب بني كبير فتحه لنا فيليب بمفتاح كان في جيبه. كان ورثة السيدة العجوز قد أعاروه المفتاح. كانوا حريصين على البيع بأسرع وقت ممكن، ويفضلون أن يستلم فيليب وماري الشقة كما هي: تحمل آثار سنوات من الإهمال ومليئة بالأشياء التي يجب إزالتها قبل تجديد المكان.

كانت الشقة مليئة بالصناديق وأكوام من الأغراض: أكوام من الصحف، وأكوام من الملابس، ورفوف كتب مكتظة بالكتب والمجلات. في أكبر غرفة في الشقة، والتي لا بد أنها كانت غرفة جلوس في وقت ما، غطت أكوام عالية من الصحف الأرضية، ولم يكن يفصل بينها سوى ممر ضيق متعرج. اتبعنا الممر بين الأكوام إلى الغرفة التالية، حيث كانت الجدران مصطفة بالصناديق والملابس، أكوام من الملابس، وفي أقصى الخلف، صندوق فضلات قطة ممتلئ. قال فيليب: "لم تعد القطة موجودة. أو القطط. كان هناك قطتان."

هذا هو المكان الذي سيعيشون فيه. فيليب وماري. كان هناك الكثير من العمل، لكن بإمكانهم البدء فورًا تقريبًا. قال فيليب: "غدًا حتى". بمجرد توقيع العقد.

تبعتهم على طول الطريق المتعرج الذي لا نهاية له بين أكوام القمامة. أردتُ الخروج من الثامن عشر من نوفمبر، ولم يكن أمامي خيار سوى اللحاق بهم. أتذكر شعوري بالارتباك. شعرتُ بشيء من الغرابة، كما لو أنني وجدتُ اختلافي، تغييري. ربما كنتُ قد انتقلتُ بالفعل إلى يوم آخر، إلى عالم جديد، في طريقي إلى التاسع عشر. مع أكوام من الصحف، وأكوام من الملابس، وصندوق فضلات قطة في نهاية طريق متعرج.

عدنا أدراجنا عبر الممر الضيق بين الغرف، وصولاً إلى الردهة وغرفة أصغر كانت قد أُخليت تقريبًا. هنا كانت ساكنة الشقة تنام مع قططها وأثمن مقتنياتها. أزال ورثتها كل ما لا يُرمى، آملين أن يتولى المالكون الجدد الباقي. قالت ماري إن الأمر يبدو شاقًا، لكنه ليس مستحيلاً. مع ذلك، سيستغرق الأمر وقتًا طويلاً، فالكثير من العمل ينتظرنا. عاشت صاحبة الشقة فيها طوال حياتها، حياة كاملة مُختزلة في شقة واحدة. كبسولة زمنية، كما وصفتها ماري. لم يُجرَ أي تغيير على المكان لسنوات، فالمطبخ يزيد عمره عن مئة عام، والحمام صغير وربما بنفس

قدمه. كانت لديهم خطط كثيرة للمكان، لكن قبل أي شيء آخر، كان لا بد من إخلائه.

غادرنا الشقة وأغلق فيليب الباب. كان بابًا داكنًا وثقيلًا بشكلٍ مُثير للدهشة، وبه مطرقة كبيرة في وسطه، وطائر نحاسي على ما يبدو، على الرغم من أنه كان أسودًا جدًا من الصدأ لدرجة أنه كان من الصعب تمييزه، و

أسفلها كان هناك اسم غير قابل للقراءة وممحو تقريبًا، شيء يبدأ بحرف G.

بعد أن أغلق فيليب الباب، حاول طرق الباب برفق بمنقار طائر أو ما شابه، وسأل إن كان أحد في المنزل. ابتسمت ماري وقالت: "ليس بعد. كل شيء، نعم. لا أحد."

في الطابق السفلي من المتجر، فتحت ماري زجاجة الشمبانيا وأحضرت بعض أكواب الماء وملأتها حتى حافتها، ثم شربنا نخب منزلهم الجديد، ونخب زيارتي، ونخب الحب. وبعد أن انتهينا من التهنئة، أعادت ماري ملء أكوابنا وسألوني عن رحلتي. ماذا كنت أفعل في المدينة، وكم من الوقت قضيت هنا، وكم سأبقى؟ هل سيكون لدي وقت لمقابلتهم مرة أخرى - ربما في وقت لاحق من ذلك المساء، أو في اليوم التالي؟ ما هي خططي؟ اضطرت ماري للخروج سريعًا، كان لديها بعض الأمور لتفعلها، لكنها لن تتأخر.

ترددت. لقد اتخذ يومي منعطفاً غير متوقع. كنت أتجول في نهاية عام مليء بأيام الثامن عشر من نوفمبر، تجولت في الشوارع وحواسي متيقظة وجميع أجهزتي في حالة تأهب قصوى، مستعداً للانطلاق إلى زمن آخر، والآن ها أنا ذا، أقف عند المنضدة في متجر فيليب، أحتسي نخبًا وأضطر إلى ذكر خططي لهذا اليوم.

قلتُ إنه لم تكن لديّ أيّة خطط، ثم فجأةً انفجرتُ في الحديث، أخبرتهم بكل شيء: عن يومي العقيم، وعن زيارتي لهم. أخبرتهم بما حدث، وكيف تناولنا الطعام معًا حول طاولة المتجر قبل عام تقريبًا، أو عدد الأيام التي كانت ستُشكّل عامًا، وكيف جررتُ أنا وماري المدفأة المُغطّاة بالغبار من خلف المتجر. لم يُخبروني عن الشقة، لكننا تحدّثنا عن أمور أخرى كثيرة.

لسببٍ ما، كنتُ أتوقع أن يُصدّقني أحد. لم أتوقع أي شك. أعني، لماذا قد يختلق أحدهم قصة كهذه؟ لكنني كنتُ مخطئًا. ربما لم يكن فيليب بحاجة إلى أي شخص يُدخل عنصرًا من القلق إلى حياته الجديدة مع

ماري. لم يكونوا بحاجة إلى أمور غريبة. كان فيليب يرى مستقبله مع ماري. لم يكن يريد أيامًا من الجمود، لم يكن يريد قلقًا.

عندما أخبرتهم عن حادثتي مع سخانهم، رأيت القلق بادياً على وجوههم، هذا بالإضافة إلى شيء آخر لم أتوقعه. تردد بين التصديق والشك، حالة من عدم اليقين لم تنبع من انزعاجهم من فكرة العطل الذي أخبرتهم عنه، بل على الأرجح من تزايد شكوكهم وإنكارهم، وربما إعادة تقييمهم لمصداقيتي.

لكن عندما أريتُ فيليب الندبة الباهتة التي خلّفها حرقي، ثم اصطحبته إلى المدفأة المغبرة في الغرفة الخلفية، بدا أنه قد حسم أمره. أن الأمر لم يكن صحيحًا. وأنني كنتُ على وشك المغادرة مجددًا. وأن لديه شكوكًا حول قصتي.

عندما أخبرتهم عن لقائي بماري في المتجر في الثامن عشر من نوفمبر، وكيف اشتريتُ عملة سيسترتيوس ثم أعدتها إلى المتجر وهي الآن في علبتها على المنضدة، تغير الجو، وما إن انتهيتُ من إخبارهم عن شراء العملة حتى مدّ فيليب يده إلى العلبة، وبنظرة خاطفة إلى ماري، وضع السيسترتيوس، مع العلبة، في كيس هدايا صغير وقدّمه لي. وكأنه يستطيع إصلاح الأمور بالتظاهر بتصديقي، أو التخلص من كل هذا الأمر إذا أخذتُ السيسترتيوس معي.

أخذتُ الحقيبة منه. وفجأةً، أدركنا أن هناك خطباً ما. كنا نقف في المتجر، نشرب الشمبانيا، وما زلنا نرتدي معاطفنا، لكن لم يبادر أحدٌ منا لخلعها أو الجلوس. لم نكن نعرف ماذا نقول أو نفعل. لم يكن لدينا أي تفسير أو إجابة، وفي اللحظة التالية كنتُ خارجاً من الباب، والحقيبة في يدي.

تمتم فيليب بشيء عن ضرورة لقائنا. قال: غداً. لكن عليّ الاحتفاظ بالسسترتيوس.

في الشارع، انتابني شعورٌ بالغرابة. للحظة، كنتُ لا أزال متأكدًا من أن هذا يومٌ آخر، التاسع عشر أو نسخةٌ جديدة من الثامن عشر، لأنني شعرتُ وكأن شيئًا ما قد تغيّر، وسرتُ في شارع ألماجست بأملٍ خافتٍ في التغيير، ولكن مع كل خطوةٍ أخطوها، كنتُ أزداد اقتناعًا بأن هذا هو نفس اليوم تمامًا كما كان من قبل.

تساءلتُ لماذا لم يُخبرني فيليب عن شرائهما للشقة في أول حديثٍ بيننا. لكنني لم أجد تفسيراً. أردتُ أن أصدق أن السبب هو أنني أعيش الآن نسخةً مختلفةً تماماً من الثامن عشر من نوفمبر، لكنني كنتُ متأكدةً بالفعل أن كل شيءٍ كما هو. كان الطقس كما هو في أيام الثامن

عشر من نوفمبر الأخرى؛ وعلى بُعد خطواتٍ قليلةٍ في الشارع، رأيتُ امرأةً تربط كلباً بنياً داكناً أمام متجر، وبعد دقائقَ حاولتُ خلالها التظاهر بالاهتمام بواجهة المتجر المجاور، عادت تحمل حقيبة تسوقٍ فيروزية، وفكّت رباط الكلب، وانصرفت به.

بدأ الضوء يخفت، وبعد دقائق أُضيئت مصابيح الشوارع كالمعتاد. مشيتُ وحقيبتي على كتفي، وحقيبة الهدايا الصغيرة التي تحوي السسترتيوس في يدي، ولم يحدث شيء. بدا كل شيء كما هو، لكن التفاصيل بدت أقل. لم يكن هناك سوى الشوارع والمتاجر والمقاهي والناس. مشيتُ بخطوات عادية على طول شوارع عادية. لم أكن أسبح في كونٍ زاخرٍ بالتفاصيل، ولم أكن أسبح في محيطٍ من التفاصيل الدقيقة، ولم تكن لدي أدنى فكرة عن وجهتي.

لقد أضعتُ فرصة زيارة فيليب وماري. لم أستطع العودة إلى المتجر. لم تكن خطة فاشلة، لأنه لم تكن هناك خطة أصلًا، لكنني لم أستطع العودة وبدء أمسيتي من جديد. لم أستطع الجلوس على المكتب القديم الذي كان بمثابة منضدة، والتحدث عن الطلب الكبير على الأعمال المصورة من القرن الثامن عشر، وعن المزاد، وعن آخر اكتشافاتي. لم أستطع إخبارهم عن الحب، أو عن شجرة التفاح في حديقتنا، أو عن الكراث والسلق. لم نستطع الجلوس هناك والدردشة عن الحياة في شارع المجسطي، وعن الاضطرابات السياسية في ذلك الخريف، وعن الشغف بالتاريخ، والطلب المتزايد على العملات الرومانية. لقد فات الأوان. كانت أمسيتي مفتوحة على مصراعيها، كل شيء وارد، هكذا فكرت، لكن لم يحدث شيء. كان الأمر كما لو أن هناك ثقبًا في عالمي المزدحم، والتفاصيل تتسرب منه، فلم يتبق من عالمي سوى الخطوط العريضة. أحداث بسيطة. أشياء عادية.

قضيتُ الأمسية في مقهى كنتُ قد زرته مرتين من قبل. لم يكن هناك الكثير من الزبائن، فجلستُ على طاولة بجوار النافذة، وكوب قهوة، والعملة السسترتيوسية في كيسها على الطاولة أمامي. لاحقًا، عندما بدأت الطاولات الأخرى تمتلئ بالزبائن، ورأيتُ أنني أتناول...

لم يكن هناك متسع كبير على طاولتي المخصصة لأربعة أشخاص، فانتقلت إلى طاولة صغيرة في الخلف. طلبت كأسًا واحدًا من النبيذ وجلست لبعض الوقت أتصفح جريدة، لكنني كنت قد قرأتها من قبل، فقد كانت مليئة بالأحداث المعروفة، وبحلول ذلك الوقت بدأ الجزء الخلفي من المقهى يمتلئ بالناس والأطباق والأكواب وأدوات المائدة، لذلك في النهاية خرجت إلى الشارع وتجولت فيه قليلًا قبل أن أستدير وأعود إلى الفندق.

في الهواء البارد، تنفستُ بسهولة أكبر، وسرتُ بخطى ثابتة طوال الليل. حفيف خفيف في الكيس الذي يحوي السسترتيوس، وسمعتُ وقع خطواتي على الرصيف، لكن ما عدا ذلك، لم أسمع سوى ضجيج حركة المرور في المدينة، كخلفية صوتية. شعرتُ بالفراغ، لكن مع هذا الفراغ جاء شعور بالراحة: أمسية مألوفة، صورة عامة دون تفاصيل كثيرة. كان هناك شيء منعش في غياب التفاصيل، في غياب التخيلات والسيناريوهات واليقظة والتكثيف.

عندما عدت إلى الفندق، وضعت الحقيبة الصغيرة التي تحوي السسترتيوس على الطاولة في غرفتي. لم أفرغها، ولكن بعد قليل، وبعد أن خلعت ملابسي ودخلت إلى الفراش، وضعتها بجانبي على الغطاء، الحقيبة وكل شيء.

أجلس في سريري وأوراقي أمامي، وأشعر وكأن هناك ثقبًا في يوم الثامن عشر من نوفمبر. كأن هناك مخرجًا، لكنه لم يعد من تلك المخارج التي تخيلتها. لا أعرف ما الذي يحدث. ليس لديّ ما أفعله سوى الانتظار لأرى ما سيحمله الليل.

يوشك الثامن عشر من نوفمبر على الانتهاء. مرّ عام وأنا مستعدٌّ لاستقبال التاسع عشر. أترك اليوم مفتوحًا. أسير مع اليوم. أنساب معه أينما يأخذني. أدع نفسي أحملها التيار. الآن أسبح. أغوص.

OceanofPDF.com